ويبدو أنّ إلف الملأ من بنى إسرائيل للتّرف مقيم وعهدهم بميادين الشّرف والبطولة والرّجولة بعيد ، ولهذا جاء على لسان نبيّهم ما يبيّن حقيقتهم وظنّه بهم وهو الّذى ينظر بنور الله تعالى ويعكس توقّعه نكوصهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم . قال تعالى : ﴿ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا ﴾ وقد تبيّن صدق حدسه عليه الصّلاة والسّلام فيهم . قارن بين هذا الموقف من بنى إسرائيل وبين قوله عزّ من قائل عن أتباع بطل الأبطال محمّد بن عبد الله ﷺ فى سورة الأحزاب(١) : ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفورًا رحيمًا ﴾ .

لقد جاء توقّع النّبىّ الكريم ألاّ يقاتل الملأ من بنى إسرائيل رغم طلبهم فرض القتال القول : ﴿ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا ﴾ والمعنى هل الأمر كما أتوقّعه ، وهل قاربتم إن كتب عليكم القتال وفرض عليكم الجهاد فى سبيل الله تعالى أنّكم لا تقاتلون ، لما أعرفه من تاريخكم الطّويل فى إلف التّرف وحياة الدّعة والنّعيم ، ولما أتبيّنه الآن فيكم من آثار ذلك الدّاء وعقابيل تلك العلّة ؟

وكان الجواب على لسانهم مبيّنًا ثلاثة أسباب مهمّة تدفعهم إلى قتال أعداء الله تعالى وأعدائهم وهى أنّ القتال فى سبيل الله تعالى وأنّ الأعداء أخرجوهم من ديارهم وأنّ الأعداء فرّقوا بينهم وبين أبنائهم وما أغلى المال والبنين وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ المالُ والبنونَ زينة الحياة الدّنيا والباقياتُ الصّالحاتُ خيرٌ عند ربّك ثوابًا وخيرٌ أملاً ﴾ قال تعالى على لسانهم : ﴿ قالوا وما لنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ والمعنى : ما الّذى يمنعنا من أن نقاتل فى سبيل الله تعالى وأىّ شىءٍ لنا وفى صالحنا ويعود بالخير علينا فى ألاّ نقاتل فى سبيل الله تعالى . إنّ كلّ البواعث ، وبخاصّةٍ الدّينيّة ، موجودةٌ كى نقاتل فى سبيل الله تعالى .

وما كان لحدس نبىّ من أنبياء الله تعالى ، وهو الّذى يرى بنور الله تعالى ، إلاّ أن

---

(١) الآية ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة الكهف ٤٦ .

يتحقّق ، قال تعالى : ﴿ فلمّا كُتِب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم . والله عليمٌ بالظّالمين ﴾ والمعنى أنّ القتال فى سبيل الله تعالى حينما فرضه الله تعالى على الملأ من بنى إسرائيل تولّوا ، بمعنى أنّهم أعرضوا عن القتال فى سبيل الله تعالى بسبب الجبن المتمكّن منهم ، والخور المتأصّل فيهم . إنّ الآية الكريمة تنصّ على النّتيجة وهى التّولّى عند مباشرة الحرب والتقاء الجمعين وهى نتيجةٌ تدلّ على أسبابها والبواعث عليها من جبنٍ وإلفٍ للذّل واستمراءٍ للتّرف . وتستثنى الآية الكريمة من الملأ عددًا قليلاً منهم صدقت نيّاتهم وواصلوا المسيرة فكتب الله تعالى لهم النّصر على عدوّ الله تعالى وعدوّهم .

ونستطيع أن نفهم من الحديث عن القتال وعن فرض الله تعالى على بنى إسرائيل أنّ أمّة محمّد ﷺ ليست بدعًا بين الأمم فى فرض القتال عليها ، فعلى هذه الأمّة أن ترفع راية الجهاد فى سبيل الله تعالى كى يعود إليها سابق مجدها وقديم عزّها .

وفى القول : ﴿ والله عليمٌ بالظّالمين ﴾ نتبيّن عقاب الله سبحانه وتعالى للظّالمين العاجل فى الدّنيا قبل الآجل فى الآخرة . ومع أنّ هذا القول يصحّ فى كلّ ظالم ، فإنّه أشدّ ارتباطًا ببنى إسرائيل الّذين تتحدّث عنهم الآية الكريمة ، والّذين يهدّدهم هذا القول بذلّ الدّنيا وخزى الآخرة .

وإذا كان بنو إسرائيل قد ظلموا أنفسهم قبل سواهم بانصرافهم عن القتال الّذى طلبوا نبيّهم أن يكتب عليهم ، فكيف لا يظلم القوم أنفسهم وكيف لا يكفرون بمحمّد بن عبد الله ﷺ وهم لم يطلبوا فرض ذلك عليهم بل ابتدأهم جلّ وعلا به . يقول الطّبرى(١) فى هذا الشّأن : « وهذا من الله تعالى ذكره تقريعٌ لليهود الّذين كانوا بين ظهرانَى مهاجَر رسول الله ﷺ فى تكذيبهم نبينا محمّدًا ﷺ ومخالفتهم أمر ربهم . يقول الله تعالى ذكره لهم : إنّكم يا معشر اليهود عصيتم الله وخالفتم أمره فيما سألتموه أن يفرضه عليكم ابتداءً من غير أن يبتدئكم ربّكم بفرض ما عصيتموه فيه فأنتم بمعصيته فيما ابتدأكم به من إلزام فرضه أحرى » .

(١) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٧٧ .

الآيــة رقــم (٢٤٧)

قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سَعَةً من المال . قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَةً فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء . والله واسعٌ عليم ﴾ .

وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم : إنّ الله قد أعطاكم ما سألتم وبعث لكم طالوت ملكا(١) وقول النّبىّ لهم لا يكون إلاّ بوحى(٢) .

طالوت : طالوت وجالوت اسمان أعجميّان معرّبان ولذلك لم ينصرفا ، وكذلك داود ، والجمع طواليت وجواليت ودواويد(٣) قال ابن عبّاس : كان طالوت يومئذٍ أعلم رجلٍ فى بنى إسرائيل وأجمله وأتمّه . وزيادة الجسم ممّا يهيب العدوّ(٤) .

قالوا أنّى يكون له الملك علينا : أى كيف يملكنا ونحن أحقّ بالملك منه ؟ ومن أىّ جهة(٥) ومن أين وهو إنكارٌ لتملّكه عليهم واستبعادٌ له(٦) عن ابن عبّاس : كان فى بنى إسرائيل سبطان كان فى أحدهما النّبوّة وكان فى الآخر الملك فلا يبعث إلاّ من كان من سبط النّبوّة ولا يملّك على الأرض أحدٌ إلاّ من كان من سبط الملك وأنّه ابتعث طالوت حين ابتعثه وليس من أحد السّبطين واختاره عليهم وزاده بسطة فى العلم والجسم ومن أجل ذلك قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه وليس من واحدٍ من السّبطين(٧) عن قتادة : كان سبط النّبوّه سبط لاوى إليه موسى وسبط المملكة يهوذا إليه داود وسليمان(٨) ويقول الطّبرىّ(٩) : « فلمّا قال لهم نبيّهم شمويل ذلك قالوا : أنّى يكون

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٧٨ (٢) البحر المحيط ٢ / ٢٥٧ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٣ .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٤ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٥٨ .
(٥) تفسير القرطبىّ ١٠٥٤ والكشّاف ١ / ٢٨٧ والبحر المحيط ٢ / ٢٥٨ .
(٦) الكشّاف ١ / ٢٨٧ (٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٠ .
(٨) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٧٩ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٥٧ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٧٨ .

لطالوت الملك علينا وهو من سبط بنيامين بن يعقوب . وسبط بنيامين سبط لا ملك فيهم ولا نبوّة . ونحن أحقّ بالملك منه لأنّا من سبط يهوذا بن يعقوب » .

وعلينا متعلّق بالملك على معنى الاستعلاء ، تقول : فلانٌ ملكٌ على بنى فلان(١) .

ونحن أحقّ: جملة حالية اسميّة عطف عليها جملة فعليّة وهى: لم يؤت سعةً من المال(٢).

اصطفاه عليكم : اختاره عليكم(٣) صفوة(٤) عن ابن عبّاس : اصطفاه عليكم اختاره(٥) .

وزاده بسطةً : سعةً وامتدادًا(٦) .

والجسم: إنّ لبسطة الجسم عظمًا فى النّفوس وهيبةً وقوّة . وكثيرًا ما تمدّحت العرب بذلك . قال الشّاعر :

فجاءت به سَبْطَ العظامِ كأنّما ... عمامته بين الرّجال لواء

وقال :

بطلٌ كأنّ ثيابه فى سرحةٍ(٧) ... يُحْذى نعال السِّبت ليس بتوأم

وقال :

تبيّن لى أنّ القماءة ذلّةٌ ... وأنّ أعزّاء الرّجال طيالها

فى هذه الآية الكريمة مجموعةٌ من الدّروس من أهمّها شروط الولاية ومقوّماتها وليس النّسب واحدًا منها . والآية الكريمة تبدأ ردًّا على طلب الملأ من بنى إسرائيل أن يبعث لهم نبيّهم ملكًا كى يقاتلوا فى سبيل الله تعالى بالقول : ﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٥٨ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٥٨ وانظر الكشّاف ١ / ٢٨٧ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٠

(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٥٨ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٠

(٦) الكشّاف ١ / ٢٨٨ .

(٧) السَّرحة واحدة السَّرح كلّ شجرٍ طال . ويقال : حذاه وحذاله وأحذاه نعلاً ألبسه إيّاه وعملها له . والسِّبت بكسر السّين الجلد المدبوغ . والتوأم : المولود مع غيره فى بطنٍ واحد .

وحينما نقارن بين طلب القوم على لسانهم لنبيّهم : ﴿ ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل ﴾ وبين تحقيق الطّلب فى القول : ﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ﴾ نتبيّن أنّ هذا الجواب قد حقّق طلب القوم وزيادة . لقد طلب القوم ملكًا وها هو ذا الملك . أمّا الزّيادة فتتجلّى فيما قرّره هذا النّبىّ الكريم بأنّ هذا الملك لم يبعثه هو ، ولو فعل ذلك لكان فيه الكفاية والغناء ، إنّما بعثه الله تعالى إليهم . لقد كان المنتظر من بنى إسرائيل أن يقولوا سمعنا وأطعنا ولكنّهم دائمًا وأبدًا هم أصحاب البقرة الّذين يشدّدون على أنفسهم وعلى أنبياء الله تعالى ويضيّقون فيزيدهم ربّ العزّة إلى شدّتهم وتضييقهم شدّة وتضييقًا .

ونستطيع أن نفهم أنّ النّبىّ إنّما قال لبنى إسرائيل ما قال بوحي من الله تعالى . وكأنّ فى مجىء لفظ الجلالة على لسان هذا النّبىّ الكريم وإسناد البعث إلى الله تعالى بصريح اللّفظ إيحاءً بالتّعنّت المتوقّع من بنى إسرائيل الآن ، المعتاد منهم سابقًا . وكان ردّ الملأ من بنى إسرائيل موافقًا لما توقّعه النّبىّ الكريم منهم . ألم يتوقّع قبل قليلٍ منهم أن يجبنوا عن القتال إذا فرض عليهم رغم طلبهم له وكانوا عند سوء ظنّه بهم وبشجاعتهم وبكفاءتهم القتاليّة فقد تولّوا عن القتال إلاّ قليلاً منهم . ونحن فى حديثنا عن تعنّت القوم نصرّ على استعمال لفظة ملأ الّتى استعملها القرآن الكريم فى حقّ القوم وقد عرفنا أنّ من متعلّقاتها الشّرف والوجاهة . إنّ هذا الفريق من بنى إسرائيل والّذى يعتبر الصّفوة منهم هو الّذى يجبن فى مجموعه عن القتال ، وهو الّذى يأبى الإذعان لمشيئة الله تعالى ببعث طالوت ملكًا . وإذا كان هذا ردّ الملأ من بنى إسرائيل فما الّذى يتوقّع من العامّة والغوغاء !. وهذا هو الرّدّ على ألسنة القوم . قال تعالى : ﴿ قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال ﴾ .

إنّ أداة الاستفهام هنا وهى بمعنى كيف ومن أىّ جهة تتضمّن معانى الاستبعاد والاستنكار والاستكبار . إنّ وقاحة القوم غير ذات الحدود الّتى دفعتهم إلى مجادلة نبىّ الله تعالى إليهم ومخاصمته بل ورفض مشيئة الله تعالى وإرادته ، جعلت تصوّرهم للولاية وشروطها تصوّرًا خاطئًا ، وما بنى على الخاطئ خاطئ . لقد نظر القوم إلى النّسب

وغفلوا عن الدّين والتّقوى . والحقيقة أنّ هذا التّصوّر الخاطئ هو الّذى أدّى ويؤدّى دائمًا وأبدًا إلى الفصام النّكد بين الدّين والدّولة . وحينما كانت نظرة القوم الخاطئة دنيويّة كان من الطّبيعىّ أن يجئ على لسانهم القول : ﴿ أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال ﴾ إنّ المقارنة حينما تكون قائمةً على أساسٍ غير صحيحٍ يُهْتَمُّ بالدّنيا ويهمل الدّين يهتمّ للمال ويترك التّقوى فمن الطّبيعىّ أن تكون على غرار مقارنة القوم ، وذلك برفض مبدأ كون المَلِك من غير بيت المُلْك ، إذ كيف يكون فى نظرتهم القاصرة المُلْكُ لطالوت وهو من غير بيت المُلْك وفقير ، كيف يكون المُلْك لطالوت عليهم وهم أحقّ بالمُلْك منه لأنّهم من بيت الملك وأغنياء . إنّ نظرة القوم القاصرة الّتى تغفل الدّين والتّقوى ومشيئة الله تعالى من الطّبيعىّ أن تقارن على هذا النّحو المادّىّ وأن تنتهى إلى أنّهم أحقّ بالملك من طالوت . إنّ طالوت إضافةً إلى كونه من غير بيت الملك رجلٌ فقير ، ولو كان غنيًّا فى نظر الملأ لهان الخطب وخفّ وطء المصيبة ببعثه ملكًا .

لقد كان ردّ النّبىّ على طلب الملأ بعث ملك إليهم تقريريًّا للدّرجة الّتى جاء معها حرف الجرّ « اللاّم » وليس « على » فى ذلك الرّد ﴿ قد بعث لكم ﴾ وهو على غرار الطلب ﴿ ابعث لنا ملكًا ﴾ أما وقد رفض القوم الإذعان لمشيئة الله تعالى وجادلوا بالحمق وبالباطل ، فقد كان من ذلك النّبىّ تأكيدٌ لذلك الرّدّ وتعميقٌ له وتقليبٌ له على كلّ الوجوه الممكنة صدًّا لكلّ الأبواب الّتى يمكن أن ينفذ منها سلالة أصحاب البقرة الّذين ورثوا عنهم اعتراضهم على مشيئة الله تعالى وعلى أنبياء الله تعالى وتعنّتهم ، والّتى يمكن أن يتسلّل منها سلالة أولئك الّذين جاء على لسانهم خطابًا لنبىّ الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام قوله تعالى فى سورة المائدة(١) : ﴿ فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون ﴾ لنتأمل جواب هذا النّبىّ الكريم فقرةً فقرة وجملةً جملة . إنّ الجواب من ذى قبل إذا كان فى القول : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوا ملكًا ﴾ وهو جوابٌ قصيرٌ على قدر الطّلب مع ما فيه من زيادةٍ معنويّةٍ كما تبيّن ، فإنّ أولى فقرات الجواب هنا الأربع : ﴿ قال إنّ الله اصطفاه عليكم ﴾ تتضمّن الجواب الأوّل وزيادة . أمّا أنّها تتضمّن الجواب السّابق فلأنّها

---

(١) الآية ٢٤ .

تفيده ، وأمّا أنّ فيها زيادةً فى المعنى فلأنّ الجواب الأوّل يقف عند البعث ولا يتعدّاه ويستعمل حرف الجرّ « إلى » أمّا هذه الفقرة فإنّها تتضمّن الاصطفاء « إنّ الله اصطفاه » بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى اختاره من بينكم لأنّه صفوتكم . وإنّما كان طالوت صفوة الملأ بسبب دينه وتقواه . وإذا كان الاصطفاء يشير إلى اختيار المصطفى من بين سواه فإنّ حرف الجرّ على الدّالّ على الاستعلاء فى القول : ﴿ إنّ الله اصطفاه عليكم ﴾ يرفع هذا المصطفى من بين الملأ إلى أعلى كى يضعه ملكًا عليهم . وبهذا يتبيّن أهمّ شرطٍ من شروط الولاية وهو الدّين أو التّقوى ، ولا ننسى أنّ هذا الشّرط مطلوبٌ تحقّقه بشأن المُلْك وليس بشأن منصبٍ دينيّ مثلاً . ولو أنّ البشريّة فطنت لهذا الشّرط وعملت على تحقيقه لما آل الأمر إلى الويل الّذى تعانى منه البشرية بسبب الفصام النّكد بين الدّين والدّولة الّذى نفذ منه أناسٌ إلى السّلطة لا يرقبون فى مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمّة . وحينما حقّق المسلمون هذا الشّرط سار مركب حياتهم بريحٍ طيّبة ، وحينما اختلّ هذا الشّرط هبّت على مركب حياة المسلمين العواصف القواصف ، فعلى المسلمين أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا وأن يعلموا يقينًا أنهم لا عاصم لهم من أمر الله إلاّ من رحم وأنّهم لا ملجأ لهم من الله إلاّ إليه .

وإذا كنّا نفهم أنّ الاصطفاء كان بسبب الدّين أو التّقوى ، وأنّ هذه الصّفة تنعكس على ذات المؤمن فى شخصه من حيث الباطن خشيةً لله تعالى واطمئنانًا داخليًّا ، ومن حيث الظّاهر فى القول الحسن والسّمت الحسن والسّلوك الحسن والخلق الحسن ، فإنّ الفقرة التّالية وهى ذات جانبين أو شقّين يكمل بها أهمّ ثلاثة شروطٍ ينبغى توافرها فى القيادة . قال تعالى : ﴿ وزاده بسطةً فى العلم والجسم ﴾ .

وأوّل ما يلاحظ أنّ جملة « وزاده » تأتى بعد الجار والمجرور فى القول ﴿ إنّ الله اصطفاه عليكم ﴾ وبما أنّ حرف الجرّ يدلّ على استعلاء طالوت بفضل الله تعالى على الملأ فإنّ هذا الاستعلاء ينسحب على الزّيادة وبهذا يكون المعنى وزاده عليكم بسطةً فى العلم والجسم . إنّ الشّرط الثّانى للولاية العلم وليس الجهل ، وإنّ الشّرط الثّالث البسطة فى الجسم وليس القماءة .

فما الّذى يلاحظ على هذين الشّرطين العلم والقوّة بالقياس إلى الإيمان أو التّقوى . لقد

فهمنا أنّ أثر الدّين يتجلّى فى باطن الإنسان وظاهره ، وبالنّظر إلى العلم يتبيّن أنّ له حظّه الموفور باطنًا وظاهرًا وبالنّظر إلى القوّة يتبيّن أنّ لها حظّها باطنًا وحظّها الموفور ظاهرًا . وإنّه بالنّظر إلى هذين الشّرطين العلم والقوّة ، نتبيّن من تقديم العلم تقديمًا للأهمّ على المهمّ ، تمامًا كما فهمنا من تقديم الدّين تقديم الأهمّ على الجميع . وإنّه بالنّظر إلى العلم يتبيّن أنّ قيمته الحقيقيّة فى آثاره الظّاهرة ، بأن ينعكس فى تحويل الإنسان ما علم إلى عمل ، وبأن ينعكس فى إذاعته بين الملأ وإشاعته بين النّاس . وكأنّ للعلم حظّه الكبير من الباطن وحظّه الأكبر من الظّاهر . وحينما نقارن بين حظّ الإيمان المتوازن بين باطن الإنسان وظاهره وحظّ العلم الّذى يغلب عليه حظّ الظّاهر نتبيّن اتّجاهًا فى ترتيب الشّروط من الباطن إلى الظّاهر إضافةً إلى ترتيب الشّروط الثّلاثة وفق أهميّتها .

فإذا تحوّلنا إلى القوّة وضخامة الجسم ، استطعنا أن نفهم بداهةً أنّ الهدف منها ليس ذات القائد إنّما شدّة النّكاية فى أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين ، وبهذا يكون حظّ هذه الصّفة من الظّاهر هو الأكبر وهو الموفور .

وبشأن العلم نستطيع أن نفهم أنّه العلم اللّدنّى وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ واتّقوا الله ويعلّمكم الله ﴾ .

وبشأن شروط القيادة الثّلاثة الدّين ، العلم ، القوّة ، نستطيع أن نفهم إنّ الدّين أو الإيمان هو أهمّها فالمعروف أنّ الإيمان — بعونٍ من الله تعالى وتوفيق — يصنع المعجزات .

وردًّا على سؤال الملأ من بنى إسرائيل نبيّهم ، سواءٌ كان ذلك السّؤال قد وقع فعلاً أو احتمالاً : لماذا اصطفى الله تعالى بالملك طالوت وهيّأ له أسبابه ؟ يجىء القول على لسان النّبىّ الكريم : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ ويعمّق هذا الرّدّ بالقول الممثّل للفقرة الأخيرة فى سلسلة الرّدود وصدّ الأبواب أمام الملأ وسدّ نوافذ التّعنّت والاعتراض من قبلهم ﴿ والله واسعٌ عليم ﴾ .

إنّ قوله تعالى : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ يذكّرنا من ناحية بقوله تعالى(٢) :

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ (٢) سورة آل عمران ٢٦ .

﴿ قل اللّٰهمّ مالكَ الملك تؤتى المُلْك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيءٍ قدير ﴾ ويذكّرنا من ناحيةٍ أخرى بقوله تعالى(١) : ﴿ لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ﴾ .

وإنّ إيتاء الله تعالى طالوت المُلْك يعمّقه القول : ﴿ والله واسعٌ عليم ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى واسع العطاء والجود والكرم هو الّذى آتى طالوت الملك . وإنّ إيتاء الله تعالى طالوت الملك دون سواه من الملأ من بنى إسرائيل امتدادٌ لعلم الله تعالى الّذى عمّقته الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية . إنّ فضل الله تعالى على طالوت الّذى خصّه الله تعالى بهذه المجموعة من النّعوت قد كمل بتفضّله ربّ العزّة عليه بإيتائه الملك إنّ إيتاء الملك امتدادٌ للسّعة . وإنّ اختصاص طالوت به امتدادٌ للعلم ، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

الآيــة رقــم (٢٤٨)

قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التّابوت فيه سَكينةٌ من ربّكم وبقيّةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إنّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه : قال لهم ذلك على جهة التّنبيه من غير سؤالٍ منهم . ويحتمل أن يكونوا سألوه الدّلالة على صدقه فى قوله : ﴿ إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ﴾ . قال ابن عطيّة : والأوّل أظهر بمساق الآية . والثّانى أشبه بأخلاق بنى إسرائيل الذّميمة وإليه ذهب الطّبرىّ(٢) والآية بمعنى العلامة(٣) .

أن يأتيكم التّابوت : أى إتيان التّابوت(٤) والتّابوت صندوق التّوراة وكان موسى عليه السّلام إذا قاتل قدّمه فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرّون(٥) والتّابوت كان من شأنه فيما ذكر أنّه أنزله الله على آدم عليه السّلام فكان عنده إلى أن وصل إلى

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٥ وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠١

(٤) تفسر القرطبىّ ص ١٠٥٥ .

(٥) الكشّاف ١ / ٢٨٨ .

يعقوب عليه السّلام ، فكان فى بنى إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتّى عَصَوْا فغُلِبوا على التّابوت غلبهم عليه العمالقة ، جالوت وأصحابه فى قول السّدّى ، وسلبوا التّابوت منهم(١) والعمالقة فرقةٌ من عاد كانوا بأريحا(٢) وقرأ أبىّ وزيد بن ثابت التّابوه بالهاء وهى لغة الأنصار(٣) وقراءة الجمهور بالتّاء(٤) .

فيه سكينةٌ من ربّكم : السّكينة فعيلة مأخوذةٌ من السّكون والوقار والطّمأنينة(٥) ولمّا كانت حاصلةً بإتيان التّابوت جعل التّابوت ظرفًا لها . وهذا من المجاز الحسن وهو تشبيه المعانى بالأجرام(٦) وكان موسى عليه السّلام إذا قاتل قدّم التّابوت فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرّون(٧) وقال ابن عطيّة : والصّحيح أنّ التّابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النّفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى . قلت : وفى صحيح مسلم عن البراء قال : كان رجلٌ يقرأ سورة الكهف وعنده فرسٌ مربوط بشطنين(٨) فتغشّته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها ، فلمّا أصبح أتى النّبىّ ﷺ فذكر ذلك له فقال : تلك السّكينة تنزّلت للقرآن . وفى حديث أبى سعيدٍ الخدرىّ أنّ أسيد بن الحُضَيْر بينما هو ليلةً يقرأ فى مِرْبَدِه(٩) الحديث . وفيه . فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأتَ لأصبَحَتْ يراها النّاس ما تستتر منهم . خرّجه البخارىّ ومسلم . فأخبر ﷺ عن نزول السّكينة مرَّة ، ومرَّة عن نزول الملائكة ، فدلّ على أنّ السّكينة كانت فى تلك الظُلَّه(١٠) وأنّها تنزل أبدًا مع الملائكة . وفى هذا حجّةٌ لمن قال إنّ السّكينة روحٌ أو شىءٌ له روح ،

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٢ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٤ .
(٣) الكشّاف ١ / ٢٨٨ وتفسير القرطبىّ ص ١٠٥٦ والبحر المحيط ٢ / ٢٦١ .
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٦١ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٧ والكشّاف ١ / ٢٨٨ .
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٦١ (٧) الكشّاف ١ / ٢٨٨ .
(٨) الشطن : الحبل وجمعه أشطان .
(٩) المربد : بكسر فسكون ففتح : الموضع الّذى ييبس فيه التّمر .
(١٠) الظّلّة : السّحابة .

لأنّه لا يصحّ استماع القرآن إلاّ لمن يعقل ، والله أعلم[١] وقد جاء فى الحديث الصّحيح : ما اجتمع قومٌ فى بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السّكينة وحفتهم الملائكة وغشيتهم الرّحمة وذكرهم الله فيمن عنده . فنزول السّكينة عليهم كنايةٌ عن التباسهم بطمأنينة الإيمان واستقرار ذلك فى قلوبهم ، لأنّ من تلا كتاب الله وتدارسه يحصل له بالتّدبّر فى معانيه والتّفكّر فى أساليبه ما يطمئنّ إليه قلبه وتستقرّ له نفسه وكأنّه كان قبل التّلاوة له والدّراسة خاليًا من ذلك فحين تلا نزل ذلك عليه[٢] .

وبقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون : اختلف فى البقيّة على أقوالٍ ، منها أنّها عصا موسى وعصا هارون ورُضاض[٣] الألواح لأنّها انكسرت حين ألقاها موسى ، قاله ابن عبّاس[٤] وثياب موسى وشيءٌ من التّوراة[٥] وثياب هارون[٦] ونعلا موسى[٧] قال ابن عبّاس : كان موسى حين ألقى الألواح تكسَّرت ورفع منها فجعل البـاقى فى ذلك التّابوت[٨] .

ممّا ترك : فى موضع الصّفة لبقيّة ، ومن للتّبعيض[٩] وآل الرّجل قرابته[١٠] والّذى يظهر أنّ آل موسى وآل هارون هم الأنبياء الّذين كانوا بعدهما فإنّهم كانوا يتوارثون ذلك إلى أن فقد[١١] .

تحمله الملائكة : هذه الجملة حال من التّابوت ، أى حاملاً له الملائكة ، والمعنى تحمله الملائكة إليكم[١٢] قال ابن عبّاس : جاءت الملائكة بالتّابوت تحمله بين السّماء والأرض وهم ينظرون إليه حتّى وضعته عند طالوت[١٣] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٧
(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٦١ .
(٣) رضاض الشّىء ، بضمّ الرّاء : فتاته .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٧ .
(٥) الكشّاف ١ / ٢٨٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٨ .
(٦) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠١ وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٨ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٨
(٨) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٨ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٦٢
(١٠) تفسير القرطبىّ ١٠٥٨ .
(١١) البحر المحيط ٢ / ٢٦٢
(١٢) البحر المحيط ٢ / ٢٦٣ .
(١٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٩ .

الآية الكريمة تتحدّث عن العلامة الّتى جعلها الله سبحانه وتعالى دليلاً على صدق هذا النّبىّ الكريم فى قوله كما جاء فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ﴾ ردًّا على طلبهم له أن يبعث لهم ملكًا كى يقاتلوا معه فى سبيل الله تعالى . والحقيقة أنّا حينما نضمّ هذه الآية الكريمة على لسان هذا الرّسول الكريم إلى الآية الكريمة السّابقة وما جرى على لسانه قبل ذلك فى حواره مع القوم ، ونقارن بين هذا الكلام الطّويل فى القرآن الكريم على لسان نبىّ من أنبياء الله تعالى ، وبين ما يتصوّر من كلامٍ مختصرٍ يكفى أولى الألباب ويشفيهم ، كأن يطلبوا مثلما طلب بنو إسرائيل من نبيّهم : ﴿ ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله ﴾ ويكون الجواب على قدر السّؤال والرّدّ على قدر الطّلب ، الحقيقة أنّا حينما نفعل ذلك نتبيّن أنّ القوم وهم سلالة أصحاب البقرة والّذين قالوا لموسى عليه السّلام : ﴿ فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون ﴾ يمثّلون الغاية فى التّعنّت والعناد والاستكبار والجراءة على أنبياء الله تعالى ، وقد قال عزّ من قائلٍ عن القوم فى سورة البقرة(١) : ﴿ وضُرِبت عليهم الذِّلّة والمسكنة وباءو بغضبٍ من الله . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وقوله عزّ من قائل فى سورة آل عمران(٢) : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذِّلّة أينما ثقِفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبت عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ لكلّ ذلك نحن مع القائلين إنّ النّبىّ إلى الملأ من بنى إسرائيل إنّما نصّ على الآية المادّيّة المحسوسة بناءً على طلب القوم تلك الآية منه عليه الصّلاة والسّلام . وإنّ هذا الرّأى الّذى نرتضيه يعتمد على ما يبدو من تعنّت للقوم شديد وحمقٍ بعيدٍ وأكيد ، ويستأنس بما جاء على لسان بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ومنه يتبيّن تمسّك القوم بالآيات المادّيّة وطيشهم وجبروتهم رغم تحقّق تلك الآيات المادّيّة الّتى طلبوا . جاء فى سورة آل عمران(٣) قوله تعالى : ﴿ الّذين قالوا إنّ الله عهد إلينا ألاّ نؤمن لرسولٍ حتّى

(١) الآية ٦١ (٢) الآية ١١٢ .
(٣) الآية ١٨٣ .

يأتينا بقُرْبانٍ تأكله النّار . قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ والمعنى أنّهم قالوا إنّ الله عهد إليهم فى كتبهم ألاّ يؤمنوا لرسولٍ حتّى يكون من معجزاته أنّ من تصدّق بصدقةٍ من أمّته فتقبّلت منه أن تنزل نارٌ من السّماء تأكلها . قاله ابن عباس والحسن وغيرهما(١) .

وبالنّظر إلى القول : ﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه ﴾ نستطيع أن نفهمه على هذا النّحو : وقال لهم نبيّهم إنّ الدّليل على صدقى فيما قلت لكم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد بعث لكم طالوت ملكًا يقودكم إلى ما سألتم من الجهاد فى سبيل الله تعالى . ويلفت نظرنا بعد ذلك القول : ﴿ أن يأتيكم ﴾ والمعروف أنّ جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، المكانىّ والزّمانىّ والمعنوىّ . والّذى يأتى هو التّابوت ، بمعنى الصّندوق الّذى فيه رُضاض الألواح المكتوب فيها التّوراة والّتى ألقاها موسى عليه السّلام وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه بعد أن عاد موسى من ميقات ربّه ووجد قومه بتضليلٍ من السّامرىّ واستضعافٍ لهارون عليه السّلام قد اتّخذوا العجل . جاء فى سورة الأعراف(٢) قوله تعالى : ﴿ ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربّكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه . قال ابنَ أمَّ إنّ القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وهذا التّابوت الّذى أتى من مكانٍ بعيد ما الّذى فيه ؟ فى هذا التّابوت شيئان مهمّان للملأ من بنى إسرائيل الجبناء عن القتال والّذين يقتنعون بالآيات المادّيّة المحسوسة . الشّىء الأوّل معنوىّ والشّىء الثّانى مادّىّ . أمّا الشّىء المعنوىّ فهو السّكينة المقترنة بوجود ذلك التّابوت والّتى يحتاجها الملأ من بنى إسرائيل أيّما حاجة وهم الّذين بعد بهم العهد عن القتال والصّراع فى ميادين الشّرف والرّجولة وألفوا حياة الدّعة واللّهو والتّرف . إنّ نزول السّكينة عليهم بسبب مجىء التابوت بين يديهم ، وزوال الخوف والقلق والاضطراب عنهم وحلول الطّمأنينة والهدوء والأنس بهم خير مسعفٍ لهم فى الحرب الّتى هم على وشك

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٤٣٤ (٢) الآية ١٥٠ .

خوضها ، وتلويحٌ بالنّصر على أعدائهم وهم الّذين بعد العهد بهم عن القتال فكيف بالنّصر والظّفر ، فليس على الملأ من بنى إسرائيل سوى أن يمتثلوا لمشيئة الله تعالى ويرضوا بطالوت ملكًا عليهم وقائدًا عسكريًّا لهم . إنّ ثمرة الطّاعة النّصر من الله والفتح القريب .

أمّا الشّىء الثّانى المرتبط بمجىء التّابوت ووصوله إلى القوم فإنّه مادّىّ محسوس مكملٌ لآية التّابوت المادّيّة ذاتها ، ومقوٍّ للسّكينة الشّىء الأوّل المعنوىّ ، وملبٍّ لرغبة بنى إسرائيل الّذين يؤمنون بالآيات المادّيّة . قال تعالى : ﴿ إنّ آية ملكه أن يأتيكم التّابوت فيه سكينةٌ من ربّكم وبقيّةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ وبشأن هذه البقيّة الّتى اختلفت فيها آراء العلماء للدّرجة الّتى يجمع بعضهم معها بين التّوراة من ناحية وبين نعلى موسى من ناحيةٍ أخرى ، فإنّا مع ميلنا إلى قبول الرّأى الّذى يذهب إلى كون البقيّة هى رضاض ألواح التّوراة وبعض الآثار المحسوسة لآل موسى وآل هارون ، يهمّنا أثر هذه البقيّة فى رفع الرّوح المعنويّة لدى الملأ من بنى إسرائيل وهم على أبواب القتال وتأكيد السّكينة والطّمأنينة ، فما أحوج القوم للسّكينة وما أحوجهم إلى الإحساس بأنّهم ليسوا وحدهم فى المعركة وبأنّهم أمسّ الخلق حاجةً لرحمة الله تعالى بهم ، وها هى ذى لفظة الرّب فى القول﴿ من ربّكم ﴾ تعْمل عمل السّحر فى نفوس القوم فالمعروف أنّ لفظ الرّب إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص والرّضا والتّنبيه إلى نعم الله تعالى ووجوب الشّكر لله تعالى عليها . وهذه السّكينة يقوّيها كذلك اسما موسى وهارون عليهما السّلام وهما من كبار أنبياء بنى إسرائيل ، ولموسى عليه السّلام بالذّات دوره القيادىّ العسكرىّ ، كما يقوّى هذه السّكينة لفظ آل الّذى يستخدم بقصد التّفخيم ، ولا يكون ذلك إلاّ فى مناسبات الإجلال والتّبجيل وربّما الرّضا .

ثمّ إنّ هذا التّابوت الّذى يأتى من بعيد يأتى تحمله الملائكة . قال ابن عبّاس : جاءت الملائكة بالتّابوت تحمله بين السّماء والأرض وهم ينظرون إليه حتّى وضعته عند طالوت . وليس وراء هذه الآيات لبنى إسرائيل مطلب ، إن كانوا مؤمنين بالله تعالى ربًّا وبنبيّه الّذى بعثه إليهم وأوحى إليه بأن يخبر الملأ من بنى إسرائيل بمشيئته أن يكون طالوت ملك الملأ وقائدهم . أمّا إذا لم يكن الملأ مؤمنين بالله تعالى ولا مصدّقين لنبيّه فإنّ إتيان

التّابوت وما كان فيه وما ارتبط به من ملابسات لا يرقى كلّ ذلك إلى الآية الّتى يؤمن بها بنو إسرائيل . وهذه المعانى أوحى بها القول الأخير فى الآية الكريمة على لسان النّبىّ الكريم : ﴿ إنّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويبدو أنّ القوم قد آمنوا أخيرًا وبعد لأيٍ بآية التّابوت . وهذا الإيمان بالآية يذكّرنا بذبح بنى إسرائيل البقرة أخيرًا الّتى أمروا بذبحها بعد تعنّت شديدٍ منهم وجراءةٍ على رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام . وإنّ تشابه سلسلتى الحوار فى هذه المناسبة ومناسبة ذبح البقرة يجعلنا نميل إلى القول : لقد آمن بنو إسرائيل بالآية أخيرًا وقد كادوا لا يؤمنون ، وذلك على غرار قول الحقّ جلّ وعلا عن ذبح بنى إسرائيل البقرة أخيرًا فى سورة البقرة(١) : ﴿ قالوا الآن جئت بالحقّ ، فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

وإليك التّعليق اللّطيف للطبرىّ(٢) على التّابوت : « وهو التّابوت الّذى كانت بنو إسرائيل إذا لقوا عدوًّا لهم قدّموه أمامهم وزحفوا معه فلا يقوم لهم معه عدوّ ولا يظهر عليهم أحدٌ ناوأهم حتّى منعوا أمر الله وكثر اختلافهم على أنبيائهم فسلبهم الله إيّاه مرّةً بعد مرّةٍ يردّه إليهم فى كلّ ذلك حتّى سلبهم آخر مرّة فلم يردّه عليهم ولن يردّه آخر الأبد »

وقال عزّ من قائل(٣) : ﴿ وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٤٩)

قال تعالى : ﴿ فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منّى ومن لم يطعمه فإنّه منّى إلاّ من اغترف غُرْفةً بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم . فلمّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقو الله كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصّابرين ﴾ .

---

(١) الآية ٧١ (٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٨٢ .

(٣) سورة الأعراف ١٦٧ .

فلمّا فصل طالوت بالجنود : بين هذه الجملة والجملة قبلها محذوف تقديره : فجاءهم التّابوت وأقرّوا له بالملك وتأهّبوا للخروج[١] .

فصل : معناه خرج بهم[٢] وأصل الفصل القطع ، يقال منه : فصل الرّجل من موضع كذا وكذا يعنى به قطع ذلك فجاوزه شاخصًا إلى غيره يفصل فصولاً . وفصل العظم والقول من غيره فهو يفصله فصلاً إذا قطعه فأبانه . وفصل الصّبىّ فصالاً إذا قطعه عن اللّبن . وقولٌ فصل يقطع فيفرق بين الحقّ والباطل لا يردّ[٣] .

فَصل طالوت بالجنود : قيل إنّ طالوت فصل بالجنود يومئذٍ من بيت المقدس[٤] .

قال : ظاهر قول طالوت أنّ الله يوحى إمّا له على قول من قال إنّه نبىّ. أو يوحى إلى نبيّهم وإخبار النّبىّ طالوت بذلك[٥] .

إنّ الله مبتليكم : مختبركم بنهر ليعلم كيف طاعتكم له والابتلاء الاختبار[٦] .

بنهر : النَّهر بفتح الهاء والنَّهْر بسكون الهاء لغتان . واشتقاقة من السّعة ، ومنه النّهار[٧] وقرأ الجمهور بنهر ، بفتح الهاء[٨] قيل هو نهرٌ بين الأردنّ وفلسطين ، وقيل هو نهرُ فلسطين[٩] قال ابن عبّاس وغيره : وهو نهرٌ بين الأردنّ وفلسطين ، يعنى نهر الشّريعة المشهور[١٠] .

فمن شرب منه : شرب قيل معناه كَرَع[١١] والكرع أن يشرب الرّجل بفيه من النّهر من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء[١٢] .

فليس منّى : أى ليس من أتباعى فى هذه الحرب ولا أشياعى ، و لم يخرجهم بذلك عن الإيمان نحو من غشّنا فليس منّا . ليس منّا من شقّ الجيوب ولطم الخدود[١٣] أى ليس من أصحابنا ولا على طريقتنا وهدينا قال[١٤] .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٦٣

(٢) تفسير القرطبىّ ١٠٥٨ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٠

(٤) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٠ .

(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٤

(٦) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٠ .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٥٩

(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٦٤ .

(٩) انظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩١

(١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٢ .

(١١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٠

(١٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦١ .

(١٣) البحر المحيط ٢ / ٢٦٤

(١٤) النّابغة الذّبيانىّ .

إذا حـــاولت فى أسدٍ فجـــورًا فإنّـى لست منك ولست مِنّـى[١]

ومن لم يطعمه فإنّه منّى : يقال : طعمت الشّىء أى ذقته ، وأطعمته الماء أى أذقته . ولم يقل ومن لم يشربه لأنّ من عادة العرب إذا كرّروا شيئًا أن يكرّروه بلفظٍ آخر ، ولغة القرآن أفصح اللّغات ، فلا عبرة بقدح من يقول : لا يقال طعمت الماء[٢] واستدلّ علماؤنا بهذا القول بسدّ الذّرائع ، لأنّ أدنى الذّوق يدخل فى لفظ الطّعم ، فإذا وقع النّهى عن الطّعم فلا سبيل إلى وقوع الشّرب ممّن يتجنّب الطّعم . ولهذه المبالغة لم يأت الكلام ومن لم يشرب منه[٣] والهاء فى قوله : فمن شرب منه وفى قوله : ومن لم يطعمه عائدةٌ على النّهر ، والمعنى لمائه . وإنّما ترك ذكر الماء اكتفاءً بفهم السّامع بذكر النّهر كذلك أنّ المراد به الماء الّذى فيه[٤] والطّعم يقع على الطّعام والشّراب[٥] .

إلاّ من اغترف : الاغتراف : الأخذ من الشّىء باليد وبآلة ومنه المِغْرفة ، والغَرْف مثل الاغتراف[٦] .

غرفة : قرىء غَرْفةً بفتح الغين وهى مصدر ، ولم يقل اغترافة ، لأنّ معنى الغَرْف والاغتراف واحد . والغَرْفة المرّة الواحدة . وقرىء غُرْفة بضمّ الغين وهى الشّىء المغترف[٧] ويقول الزّمخشرىّ[٨] : « وقرىء غَرْفة ، بالفتح بمعنى المصدر وبالضّمّ بمعنى المغروف » ويقول أبو حيّان[٩] : « الغرفة بضمّ الغين اسمٌ للقَدر المغترف من الماء كالأكلة للقَدْر الّذى يؤكل . وبفتح الغين مصدر للمرّة الواحدة نحو ضربت ضربةً » وهذا الاستثناء : إلاّ من اغترف غرفةً بيده ، من الجملة الأولى وهى قوله : فمن شرب منه فليس منّى[١٠] وفى الاستثناء محذوفٌ تقديره : إلاّ من اغترف غرفةً بيـده فشربها

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٠ .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩١ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٠
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩١ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٤
(٦) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦١ .
(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦١ .
(٨) الكشّاف ١ / ٢٨٩ وانظر شرح أبى حيّان لهذا الكلام فى البحر المحيط ٢ / ٢٦٥ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠
(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٦٥ .

أو للشّرب[١] ويقول الطبرىّ[٢] : « اختلفت القرّاء فى قراءة قوله : إلاّ من اغترف غرفة بيده ، فقرأه عامّة قرّاء أهل المدينة والبصرة غرفة بنصب الغين من الغرفة بمعنى الغرفة الواحدة من قولك اغترفت غرفة . والغرفة هى الفعل بعينه من الاغتراف . وقرأه آخرون بالضّمّ بمعنى الماء الّذى يصير فى كفّ المغترف ، فالغرفة الاسم والغرفة المصدر » قال ابن عبّاس : من اغترف منه بيده روى ومن شرب منه لم يرو[٣] .

فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم : قال ابن عبّاس : شربوا على قدر يقينهم ، فشرب الكفّار شرب الهِيم[٤] وشرب العاصون دون ذلك ، وانصرف من القوم ستّةٌ وسبعون ألفًا ، وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا ، وأخذ بعضهم الغُرْفة ، فأمّا من شرب فلم يَرْوَ بل برّح به العطش ، وأمّا من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممّن أخذ الغُرْفة[٥] فشربوا منه : أى فكرعوا فيه[٦] والقليل المستثنى أربعة آلاف ، قاله عكرمة والسّدّى . وقيل : ثلاثمائة وثلاثة عشر[٧] .

فلمّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه . يقول القرطبىّ[٨] : « وأكثر المفسّرين على أنّه إنّما جاز معه النّهر من لم يشرب جملة ، فقال بعضهم : كيف نطيق العدوّ مع كثرتهم . فقال أولو العزم منهم : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله . قال البراء بن عازب : كنّا نتحدّث أنّ عدّة أهل بدر كعدّة أصحاب طالوت الّذين جاوزوا معه النّهر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً . وفى رواية : وثلاثة عشر رجلاً . وما جاز معه إلاّ مؤمن » وجاوز وجاز المكان قطعه[٩] فاعل فيه بمعنى فعل[١٠] ويقول أبو حيّان[١١] : « وأكثر المفسّرين على أنّه إنّما جاوز النّهر من لم يشرب إلاّ غرفة ومن لم يشرب جملة ، ثمّ اختلفت بصائر هؤلاء

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٦٥ (٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٢ .
(٤) الهيم : الإبل الّتى يصيبها داءٌ فلا تروى من الماء واحدها أهيم والأنثى هيماء .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٢ (٦) الكشّاف ١ / ٢٨٩ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ٢٦٦ .
(٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٣ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠ (١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٦٧ .
(١١) البحر المحيط ٢ / ٢٦٧ .

فبعضٌ كعّ وقليلٌ صمّم . وهو توكيدٌ للضّمير المستكنّ فى جاوزه » كناية اسم طالوت[١] وحديث البراء رواه البخارىّ كما بيّن ابن كثير[٢] .

قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : قائل ذلك الكفرة الّذين انخزلوا وهو الفاعل فى شربوا . قاله ابن عبّاس والسّدّىّ . وقيل من قلّت بصيرته من المؤمنين وهم الّذين جاوزوا النّهر وهم القليل ، قاله الحسن وقتادة والزّجّاج[٣] .

وطاقة من الطّوق وهو القوّة وهو من أطاق كأطاع طاعة وأجاب جابةً وأغار غارة[٤] .

جالوت : اسمٌ أعجمىّ ممنوعٌ من الصّرف للعجمة والعلميّة . كان ملك العمالقة . ويقال إنّ البربر من نسله[٥] .

قال الّذين يظنّون : الظّنّ هنا بمعنى اليقين ، ويجوز أن يكون شكًّالا علمًا ، أى قال الّذين يتوهّمون أنّهم يقتلون مع طالوت فيلقون الله شهداء ، فوقع الشّكّ فى القتل[٦] .

ملاقوا لله : معنى ملاقو الله أى يستشهدون فى ذلك اليوم لعزمهم على صدق القتال وتصميمهم على لقاء أعدائهم كما جرى لعبد الله بن حزام فى أحد وغيره . ويحتمل أن يكون الظّنّ بمعنى الإيقان أى يوقنون بالبعث والرّجوع إلى الله . قاله السّدّىّ فى آخرين[٧] قال ابن زيد : الّذين لم يأخذوا الغرفة أقوى من الّذين أخذوا وهم الّذين قالوا : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصّابرين[٨] .

كم من فئةٍ قليلة : كم خبريّة بمعنى كثير[٩] والفئة : الجماعة من النّاس والقطعة منهم ، مِنْ فأوت رأسه بالسّيف وفأيته أى قطعته[١٠] « لا واحد له من لفظه وهو مثل الرّهط

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٣ (٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٢ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٦٧ وانظر تفسير الطّبرى ٢ / ٣٩٤ واتّهامه — رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً — بالغفلة للّذين يذهبون إلى أنّ الّذين جاوزوا النّهر مع طالوت أهل الإيمان الّذين ثبتوا معه على إيمانهم ومن لم يشرب من النّهر إلاّ الغرفة .

(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٦٧ (٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠ .

(٦) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٥ .

(٧) البحر المحيط ٢ / ٢٦٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٥ .

(٨) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٥ (٩) الجلالين .

(١٠) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٣ .

والنّفر جمعه فئات وفئون فى الرّفع ، وفئين فى النّصب والخفض بفتح نونها فى كلّ حال ..... »[١] .

بإذن الله : بقضاء الله وقدره[٢] وإرادته[٣] .

والله مع الصّابرين بالعون والنّصر[٤] .

بعد أن بيّن النّبىّ الكريم للملأ من بنى إسرائيل الآية على بعث الله تعالى لهم طالوت ملكًا وتحقّق تلك الآية ومجىء التّابوت الّذى فيه سكينةٌ من ربّهم وبقيّةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة صدّق الملأ نبىّ الله تعالى إليهم وآمنوا أنّ طالوت مبعوثٌ إليهم ملكًا من الله تعالى وانضووا تحت راية طالوت الّذى فصل بجنوده وخرج من بيت المقدس فيما يقال بجيشه الّذى قوامه الملأ من بنى إسرائيل . ولمّا كان الوقت صيفًا والقيظ شديدًا والحرّ لافحًا والحاجة إلى الماء قويّة فقد سألوا طالوت الماء فأخبرهم بما أخبره به النّبىّ فيما يقال وقد أوحى إليه بمصادفة القوم النّهر أمامهم . لقد أخبرهم طالوت أنّ الله سبحانه وتعالى مبتليهم بنهر ومختبرهم بذلك الماء الواسع المتدفّق كى يتبيّن مدى صبرهم وقوّة احتمالهم فمن كان غير صابر عن الماء وغير قادرٍ على احتمال العطش فهو على الجهاد أقلّ صبرًا وعلى القتال والقتل أقلّ احتمالاً :﴿ فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّى ومن لم يطعمه فإنّه منّى إلاّ من اغترف غرفةً بيده﴾ إنّ الابتلاء من الله تعالى على الصّبر وإنّ الملأ من بنى إسرائيل حينما يرون الماء العذب النّمير المتدفّق عليهم ألاّ يشربوا من الماء فإنّ من شرب من ذلك الماء ليس من طالوت فى تلك المهمّة ، وليس من أصحابه فى ذلك العمل ، وليس من خلصائه فى الجهاد فى سبيل الله تعالى . إنّ من كرع فى ذلك الماء ، وشرب منه بفيه كى يرتوى ويتضلّع فليس من ذلك الملك المجاهد فى سبيل الله تعالى فى شىء . أمّا من لم يطعم من الملأ ذلك الماء و لم يذقه البتّة فإنّه من طالوت ومن صفوة خلصائه فى مهمّة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وإنّه خليقٌ به أن يصاحب طالوت ويواصل السّير إلى ميدان القتال ومواجهة أعداء الله تعالى . إنّ الّذين

---

(١) تفسير الطّبرى ٢ / ٣٩٥

(٢) تفسير الطّبرى ٢ / ٢٩٥ .

(٣) الجلالين

(٤) الجلالين .

لا يذوقون الماء العذب النّمير المتدفّق أمامهم مطلقًا يضربون أعلى الأمثلة فى الصّبر والقدرة على الاحتمال ، وإنّ الّذين يشربون من ذلك الماء ويعبّون منه عبًا يضربون أعلى الأمثلة فى الخور والجزع والهلع والنّكوص عن القتال . وتستثنى الآية الكريمة من الشّاربين أولئك الّذين يغترف الواحد منهم بيده غرفةً واحدة من الماء يرطّب بها فاه ويقتل بها حرّ الظمأ .

وهذا الاستثناء من الحالة الأولى حالة الشّرب يجىء متأخّرًا عن الحالة الثّانية حالة عدّم ذوق الماء دليلاً على فضل هذه الحال ولهذا تقدّمت الإشارة إليها قبل الاستثناء . وإذا كنّا نعرف بداهةً أنّ أفضل الحالات الثّلاث هى حالة عدم ذوق الماء لأنّها أكبر دليلٍ على صبر القوم واحتمالهم المشاقّ ، فإنّ النّهى عن الشّرب ابتداءً فى القول : ﴿ فمن شرب منه فليس منّى ﴾ فيه إيحاءٌ من ناحية بكون هذه الحال أسوأ الحالات الثّلاث ، وإيحاءٌ من ناحيةٍ أخرى بكون القوم ربّما غلبت عليهم هذه الحال فبادروا إلى شرب الماء وعجزوا عن كبح شهواتهم وضبط غرائزهم . ألم يتول عن القتال الكثير من الملأ بعد أن طلبوا من نبىّ الله تعالى عليهم أن يكتب جلّ وعلا عليهم القتال فى سبيل الله تعالى ؟ أليس القوم هم الغاية فى التّعنّت والجراءة على أنبياء الله تعالى والعصيان ؟ بلى .

وإنّ هذا الّذى تقول به القرائن ويفهم من وصف النّبىّ الكريم للحالات الثّلاث وتبيين أسوأ الحالات الثّلاث الّتى يحتمل ارتكاب القوم لها قد تحقّق فعلاً فى قوله عزّ من قائل : ﴿ فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم ﴾ .

ونحن حينما نتمثّل الملأ من بنى إسرائيل وقد طلبوا من نبيّهم أن يُكْتَبَ عليهم القتال بينما هم فى الدعة يتقلّبون وفى النّعيم يرفلون نستطيع أن نتمثّلهم أوّل الأمر كثيرًا . وما لبثوا أن عادوا قليلاً بعد أن فرض الجهاد فى سبيل الله تعالى . قال تعالى : ﴿ فلمّا كُتِب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم ﴾ .

ونحن نستطيع بعد ذلك أن نتمثل هذا القليل وقد جرى بينه وبين نبىّ الله تعالى ما جرى من حوار ، وقد جرى بينه وبين طالوت بشأن النّهر ما جرى وقد شرب هذا القليل من ماء النّهر باستثناء القليل من هذا القليل ، نستطيع أن نتمثّل هذا القليل وقد عاد بعد مجاوزة النّهر أقلّ من القليل ، لأنّ فى عجزه عن ضبط نفسه أمام الماء واندفاعه إلى النّهر

يعبّ منه عبًّا أكبر صارفٍ له عن عبور النّهر ومواصلة السّير إلى القتال . ونستطيع أن نفهم أنّ فى عجز الشّاربين عن عبور النّهر ومواصلة السّير إلى ميدان القتال باعثًا لطالوت الّذى يسدّد الله تعالى خطاه على الارتياح من عبء هؤلاء الجبناء المثبّطين ، وقد جاء فى مناسبةٍ غير بعيدةٍ من هذه وهى غزوة تبوك فى حقّ الجبناء المنافقين المثبّطين قوله عزّ من قائل فى سورة التّوبة(١) : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم . والله عليمٌ بالظّالمين ﴾ .

أما وقد بقى من بنى إسرائيل بعد فرض القتال القليل ، وهم الّذين أخذوا بالعزيمة ، فلم يطعموا الماء البتّة ، والّذين أخذوا بالرّخصة ، فغرف الواحد منهم غرفةً بيده ، وكلاهما مصيبٌ وعلى حقّ ، فمن حقّنا بعد ذلك أن ننظر بإكبار إلى الحديث الصّحيح(٢) الّذى رواه البراء بن عازب : كنّا نتحدّث أنّ عدّة أهل بدرٍ كعدّة أصحاب طالوت الّذين جاوزوا معه النّهر ، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وفى رواية : وثلاثة عشر رجلاً ، وما جاز معه إلاّ مؤمن .

فى ضوء هذا التّبيين ، نستطيع أن نفهم — والله تعالى أعلم — قوله تعالى : ﴿ فلمّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ بأنّ معناه : فلمّا جاوز النّهر طالوت والّذين آمنوا معه من الّذين لم يطعموا الماء والّذين اغترف الواحد منهم بيده غرفةً فشربها ، لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، ولا قوّة لنا ولا قدرة على قتال جالوت الطّاغية وجنوده العمالقة . وبفضلٍ من الله تعالى ونعمة ، وعونٍ منه جلّ وعلا وتوفيق ، وتأييدٍ وتسديد ، تبرز فئةٌ من بين هذا الأقلّ من ذلك القليل ، وهى الّتى يجىء عنها القول : ﴿ قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقو الله كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصّابرين ﴾ والمعنى أنّ هذا العدد المصطفى من أقلّ القليل ، والّذى يعتقد يقينًا أنّه ملاقى الله يوم القيامة فمحاسبه فمجازيه على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة إساءةً بعد له أو بفضله غفرانًا ، ومثيب المجاهد فى سبيله جلّ وعلا مغفرةً وجنّةً ورضوانا ، هذا

(١) الآية ٤٧ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٢ وتفسير القرطبىّ ص ١٠٦٣ وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٣ .

العدد المصطفى من أقلّ القليل ، المصمّم على الجهاد فى سبيل الله تعالى ، الموطّن نفسه على إحدى الحسنيين النّصر أو الشّهادة فى سبيله جلّ وعلا يجىء على لسانه القول : ﴿ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله . والله مع الصّابرين ﴾ والمعنى أنّ ثمّة كثيرًا من الفئات المجاهدة فى سبيل الله تعالى القليلة العدد والعدّة ولكنّها الكثيرة بالله تعالى غلبت فئةً كثيرةً فى العدد والعدّة لأنّ وليّها الشّيطان الرّجيم الّذى تقاتل من أجله الطّاغوت ، وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والّذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطّاغوت فقاتلوا أولياء الشّيطان إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفًا ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى مع الصّابرين بالعون والتّأييد والنّصر لأنّهم يقاتلون فى سبيله جلّ وعلا .

وما دام الّذين اغترف الواحد منهم غرفةً من ماء النّهر فشربها إنّما فعل ما أذن الله تعالى له بفعله فأخذ بالرّخصة ، فمن حقّنا أن نفهم أنّ تلك الفئة القليلة الّتى ظنّت أنّها ستلاقى الله تعالى خليطٌ من الّذين لم يطعموا الماء البتّة ومن الّذين اغترف الواحد منهم غرفةً بيده ، فليس كلّ تلك الفئة المختارة من الّذين لم يطعموا الماء . ووراء ذلك نميل إلى كون أكثر أفراد الفئة الّتى أيقنت أنّها ستلاقى الله تعالى ووطّنت نفسها على الاستبسال فى القتال وعلى الشهادة هم من الفئة الّتى لم تطعم الماء البتّة لأنّها أثبتت بعون الله تعالى أنّها أكثر صبرًا وأقوى احتمالاً . إنّ الصّبر عن الماء مظنّة الصبّر على الجهاد .

وإنّ مجىء هذا القول : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ على لسان هذه الفئة الّتى جاوزت النّهر يصحّ أن يكون أفرادها من أولئك الّذين اغترف الواحد منهم غرفةً بيده ، ويكون أقلّ أفرادها من أولئك الّذين لم يطعموا الماء . وإنّ دليلنا على ما نقول هو أنّ الصّبر على العطش وعن الماء ليس دليلاً أكيدًا وأخيرًا على الصّبر على القتال ، بدليل أنّ هذا القول : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ جرى بطريقةٍ أكيدة على ألسنة أولئك الّذين صبروا جزئيًّا عن الماء وعلى العطش فاغترف الواحد منهم غرفةً بيده فشربها ، ويصحّ

---

(١) سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام ١١ .

(٢) سورة النّساء ٧٦ .

أن يكون قد شاركهم القول أفرادٌ من الّذين صبروا كلّيّةً عن الماء .

إنّ القول : ﴿ بإذن الله ﴾ والقول : ﴿ والله مع الصّابرين ﴾ يفيدان أنّ منتهى ما يبذله العبد من أسباب لا تؤدّى إلى النّصر على الأعداء دون أن يأذن الله تعالى بذلك ودون أن ينصر الله تعالى جنده . وإنّ على هؤلاء الجند أن يمتثلوا أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم وأن يأخذوا بالأسباب وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ ولينصُرَنّ الله من ينصره . إنّ الله لقوىّ عزيز ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٥٠)

قال تعالى : ﴿ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

ولمّا برزوا : صاروا بالبَراز من الأرض وهو ما ظهر منها واستوى . ولذلك قيل للرّجل القاضى حاجته تبرّز ، لأنّ النّاس قديمًا فى الجاهليّة إنّما كانوا يقضون حاجتهم فى البَراز من الأرض فقيل قد تبرّز فلان إذا خرج إلى البراز من الأرض لذلك . كما قيل تغوّط لأنّهم كانوا يقضون حاجتهم فى الغائط من الأرض وهو المطمئنّ منها[٤] والمبارزة فى الحرب أن يظهر كلّ قرن لصاحبه بحيث يراه قرنه[٥] .

أفرغ : اصبب[٦] علينا صبرًا : سؤالٌ بأن يصبّ عليهم الصّبر حتّى يكون مستعليًا عليهم ويكون لهم كالظّرف وهم كالمظروفين له[٧] يقال : أفرغت الدّلو صببت ما فيه

(١) سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام ٧ (٢) سورة الحجّ ٤٠ .
(٣) سورة الصّافات ١٧١ — ١٧٣ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦ وانظر مفردات الرّاغب « برز » ٤٣ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ (٦) الجلالين .
(٧) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ .

ومنه استعير : أفرغ علينا صبرًا[١] يعنى أنزل علينا صبرًا[٢] والصّبر هنا حبس النّفس للقتال ، فزعوا إلى الدّعاء لله تعالى فنادوا بلفظ الرّبّ الدّالّ على الإصلاح وعلى الملك ففى ذلك إشعارٌ بالعبوديّة[٣] .

وثبّت أقدامنا : بتقوية قلوبنا على الجهاد[٤] والقدم الرِّجل ، وهى مؤنّثة تقول فى تصغيرها قديمة . والاشتقاق فى هذه الكلمة يرجع لمعنى التّقدّم[٥] .

وانصرنا على القوم الكافرين : جاءوا بالوصف المقتضى لخذلان أعدائهم وهو الكفر ، وكانوا يعبدون الأصنام[٦] والمعنى : وانصرنا على القوم الكافرين الّذين كفروا بك فجحدوك إلٰهًا وعبدوا غيرك واتّخذوا الأوثان أربابًا[٧] .

نستطيع أن نفهم أنّ الّذين يوقنون أنّهم ملاقو ربّهم هم عماد الّذين برزوا لجالوت وجنوده وجهًا لوجه ، وصاروا بالمكان الظّاهر من الأرض المستوى الصّالح للكرّ والفرّ ، الإقبال والإدبار . ويصحّ أن يكون معهم أولئك الّذين ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ فإنّا نتبيّن أنّ العناية الإلٰهيّة ترافق القوم وتسدّد خطواتهم على غرار العناية الإلٰهيّة الّتى رافقت الطّائفتين الأوسيّة والخزرجيّة اللّتين همّتا بالفشل والجبن والضّعف والخور فى غزوة أحد فتولّاهما الله تعالى بسبب إيمانهما وإلى ذلك أشار قوله تعالى[٨] : ﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون ﴾ والطّائفتان بنو سلمة بكسر اللّام من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما الجناحان[٩] ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده ﴾ أنّ طالوت ومن معه من بنى إسرائيل قد أخذوا من جانبهم العدّة القتال ، وعملوا كلّ ما فى وسعهم . وبما أنّ النّصر إنّما هو من الله سبحانه وتعالى فإنّهم جميعًا اتّجهوا إلى الله تعالى كى يهبهم النّصر ويهيّئ لهم أسبابه : ﴿ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت

---

(١) مفردات الرّاغب « فرغ » ص ٣٧٧
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨
(٤) الجلالين وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٢٩٦
(٨) سورة آل عمران ١٢٢ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ٤ / ٤٨ والسّيرة النّبويّة ٣ / ٥٨ .

أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وهذا القول يذكّرنا بالمعنى ذاته الّذى أشارت إليه سورة آل عمران . قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وكأيّن من نبىٍّ قاتل معه رِبّيّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا . والله يحبّ الصّابرين . وما كان قولَهُمْ إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافَنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحبّ المحسنين ﴾ .

لقد جاء فى الآية الكريمة السّابقة الإشارة إلى أنّ النّصر بإذن الله تعالى وأنّ الله مع الصّابرين . وإنّ هذه الآية الكريمة ذات علاقةٍ بالصّبر ، فها هى ذى الفئة القليلة من بنى إسرائيل يجىء على لسانها القول: ﴿ ربّنا أفرغ علينا صبرًا ﴾ ونحن نصادف صيغة النّداء المشتمل على لفظ الرّبّ الحبيب « ربّنا » الّذى يدلّ على تذلّل القوم لله تعالى وخضوعهم له جلّ وعلا والإشعار بالعبوديّة وهم يسألون الله سبحانه وتعالى أن يفرغ عليهم صبرًا فى ذلك الموقف العصيب لأنّ الصّبر منهم دون العون من الله تعالى لا فائدة منه ولا خير وراءه ، وهم يطمعون من الله تعالى فى كمّيّة هائلةٍ من الصّبر تصبّ عليهم صبًّا وتسكب عليهم سكبًا وكأنّ كميّة الصّبر النّازلة عليهم الشّاملة لكلّ واحدٍ منهم بمثابة الغَرْب أو الدّلو الكبيرة المملوءة ماءً فهى تغطّى كلّ واحدٍ من مفرق شعر رأسه إلى أخمص قدمه . والّذى عمّق ضخامة هذه الكمّيّة مجىء لفظة صبر منكّرة « صبرا » .

وإذا كان ابتداء الصّبر منهم وكان العون من الله تعالى والتّأييد بإفراغ الصّبر عليهم إفراغًا ، فإنّ أولى المواقف الّتى يتجلّى فيها ذلك الصّبر هو أن تثبت أقدامهم فى ميدان القتال وألاّ تزلّ بهم النّعال فى ذلك الموقف العصيب ، لذا هم يسألون الله تعالى أن يثبّت أقدامهم إثر إفراغ الصّبر عليهم . وإنّ ثمرة هذا النّوع من الصّبر المبارك وثبات الأقدام المؤيّد من الله تعالى هو النّصر من الله تعالى الّذى يسأله الملأ من الله تعالى : ﴿ ربّنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ وما النّصر إلاّ من عند الله ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) سورة الأنفال ١٠ وسورة آل عمران ١٢٦ .

يقول القرطبىّ(١) فى هدي المصطفى ﷺ إذا لقى العدوّ : « وكان ﷺ إذا لقى العدوّ يقول فى القتال : اللّهمّ بك أصول وأجول . وكان ﷺ يقول إذا لقى العدوّ : اللّهمّ إنّى أعوذ بك من شرورهم وأجعلك فى نحورهم . ودعا يوم بدرٍ حتّى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز الله وعده » .

الآيــة رقــم (٢٥١)

قال تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داودُ جالوتَ وآتاه الله المُلْك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء . ولولا دفع الله النّاسَ بعضهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين ﴾ .

فهزموهم : فى هذا الكلام متروك ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر منه عليه وتقديره : فاستجاب لهم ربّهم فأفرغ عليهم صبره وثبّت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله(٢) فهزموهم : فكسروهم . والهزم الكسر ومنه سقاءٌ متهّزِم ، أى انثنى بعضه على بعضٍ مع الجفاف . ومنه ما قيل فى زمزم : إنّها هَزْمة جبريل ، أى هزمها جبريل برجله فخرج الماء . والهزم ما تكسّر من يابس الحطب(٣) هزم : كسر الشّىء وردّ بعضه على بعض وتقول العرب : هزمت على زيدٍ عطفت عليه . قال الشّاعر :

هـزمت عليك اليوم يـا ابنـة مــالكٍ   فجـودى علينـا بالنّــوال وأنعمــى(٤)

بإذن الله : بقضاء الله وقدره(٥) وتمكين الله(٦) وإرادته(٧) .

داود: اسمٌ أعجمىٌّ منع الصّرف للعلميّة والعجمة، وهو هنا أبو سليمان، على نبيّنا وعليهما السّلام(٨) وروى أنّ داود كان من أرمى النّاس بالمقلاع(٩) وروى أنّ طالوت

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٤

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٤

(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦

(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ .

(٧) الجلالين

(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠ .

(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ .

الملك اختاره من بين قومه لقتال جالوت الّذى كان من أشدّ النّاس وأقواهم(١) وروى أنّه وضع حجرًا فى المقلاع وسمّى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله وحزّ رأسه وجعله فى مخلاته واختلط النّاس وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة(٢) وروى أنّ طالوت وعده إن قتل جالوت أن يزوّجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره(٣) وقد وفى طالوت لداود ثمّ آل الملك إلى داود عليه السّلام مع ما منحه الله من النّبوّة العظيمة(٤)

ويقول القرطبىّ(٥) : « قلت : وفى قول طالوت : من يبرز له ويقتله فإنّى أزوّجه ابنتى وأحكّمه فى مالى ، معناه ثابتٌ فى شرعنا . وهو أن يقول الإمام : من جاء برأسٍ فله كذا أو أسيرٍ فله كذا » .

وآتاه الله الملك والحكمة : قال السّدّى : آتاه الله ملك طالوت ونبوّة شمعون(٦) بعد موتهما ولم يجتمعا لأحدٍ قبله(٧) وروى أنّ طالوت تخلّى لداود عن الملك فصار الملك(٨)

ويقول أبو حيّان(٩) : « والحكمة وضع الأمور مواضعها على الصّواب وكمال ذلك إنّما يحصل بالنّبوّة فلذلك فسّرها بعضهم بالنّبوّة ولم يكن ذلك لغيره قبله ، كان الملك فى سبط والنّبوّة فى سبط فلمّا مات شمويل وطالوت اجتمع لداود الملك والنّبوّة » .

وعلّمه ممّا يشاء : صنعة الدّروع ومنطق الطّير(١٠) والزّبور(١١) والتّقدير فى السّرد(١٢) أى ممّا يشاء الله من العلم الّذى اختصّه به ﷺ(١٣) .

ولولا دفع الله النّاس : الدّفع الصّرف . دفع يدفع دفعًا ودافع مدافعةً ودفاعًا(١٤) النّاس مفعول(١٥) .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٤ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٥ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٣ وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣٩٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٣ (٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٦ .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٦ (٧) الجلالين وانظر الكشاف ١ / ٢٨٩ .
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٦٨ (٩) البحر المحيط ٢ / ٢٦٩ .
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٦ والجلالين (١١) البحر المحيط ٢ / ٢٧١ .
(١٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٤٠٣ (١٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٣ .
(١٤) البحر المحيط ٢ / ٢٦٠ (١٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٧ .

بعضهم ببعض : بعضهم بدل من النّاس . ببعض فى موضع المفعول الثّانى عند سيبويه . وهو عنده مثل قولك : ذهبت بزيد فزيد فى موضع مفعول فاعلمه[١] والمدفوع بهم جنود المسلمين والمدفوعون المشركون[٢] قال ابن عبّاس : ولولا دفع الله العدوّ بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد . وحكى مكّىّ أنّ أكثر المفسّرين على أنّ المعنى : لولا أنّ الله يدفع بمن يصلّى عمّن لا يصلّى وبمن يتّقى عمّن لا يتّقى لأهلك النّاس بذنوبهم . وكذا ذكر النّحّاس والثّعلبىّ أيضًا . قال الثّعلبىّ . وقال سائر المفسّرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجّار والكفّار لفسدت الأرض أى هلكت . وذكر حديثًا أنّ النّبىّ ﷺ قال : إنّ الله يدفع العذاب بمن يصلّى من أمّتى عمّن لا يصلّى وبمن يزكّى عمّن لا يزكّى وبمن يصوم عمّن لا يصوم وبمن يحجّ عمّن لا يحجّ وبمّن يجاهد عمّن لا يجاهد . ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة عين ثمّ تلا رسول الله ﷺ : ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض . وعن النّبىّ ﷺ قال : إنّ لله ملائكةً تنادى كلّ يوم : لولا عبادٌ ركّع وأطفالٌ رُضّع وبهائم رُتّع لصُبَّ عليكم العذاب صبّا . خرّجه أبو بكر الخطيب بمعناه من حديث الفضيل بن عياض . قال قال رسول الله ﷺ : لولا فيكم رجالٌ خشّع ، وبهائم رتّع ، وصبيان رضّع ، لصبّ العذاب على المؤمنين صبًّا . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

لولا عبادٌ للإله رُكّعُ   وصِبيةٌ من اليتامى رُضَّعُ
ومهملاتٌ فى الفلاة رُتّعُ   صُبَّ عليكم العذابُ الأوجعُ[٣]

لفسدت الأرض : بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد[٤] ويقول أبو حيّان[٥] : « لفسدت الأرض بقتل المؤمنين وتخريب البلاد والمساجد . قال معناه ابن عبّاس وجماعةٌ من المفسّرين » .

ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين : بيّن سبحانه أنّ دفعه بالمؤمنين شرّ الكافرين فضلٌ منه ونعمة[٦] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٧   (٢) البحر المحيط ٢ / ٢٦٩ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٨   (٤) الجلالين .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٦٩   (٦) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٩ .

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء الفئة القليلة المؤمنة الموقنة بأنها ستلقى يوم القيامة ربّها جلّ وعلا وكان تعالى عند حسن ظنّ عباده به فأفرغ على المؤمنين صبرًا وثبّت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين . وها هى ذى الآية الكريمة تواصل ما انتهى إليه الدّعاء المستجاب ، وها هى ذى الآية الكريمة تقرّر أنّ المؤمنين من بنى إسرائيل بقيادة طالوت هزموا الكافرين ، جالوت وجنوده . وإذا كانت الآية الكريمة قبل السّابقة نصّت على أنّ الله تعالى مع الصّابرين وأنّ النّصر بإذن الله تعالى ، وكانت الآية الكريمة السّابقة قد تحدّثت عن الصّبر فى القول : ﴿ وأفرغ علينا صبرًا ﴾ فإنّ هذه الآية الكريمة تقرّر أنّ النّصر بإذن الله تعالى وذلك فى القول : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ لقد كان نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين بإذن الله تعالى وإرادته ، قضائه وقدره .

وتوّج نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين بقتل جالوت الطّاغية . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الّذى قتل جالوت هو داود عليه السّلام وكان آنذاك جنديًّا فى جيش طالوت ، وكان فيما يقال أرمى النّاس بالمقلاع وأنّه رمى من بعيدٍ بحجرٍ فى المقلاع جالوت فأصاب مقتله وهشّم رأسه واحتزّه وجاء به طالوت الّذى يقال إنّه وعد من يقتل جالوت ويأتيه برأسه أن يزوّجه ابنته ويشاطره نعمته . وقد آتى الله سبحانه وتعالى داود الملك ، الّذى يصحّ أن يكون قد آل إليه بعد وفاة طالوت الّذى شاطره نعمته وبذلك تحوّل الملك على بنى إسرائيل إلى داود ، كما آتى الله سبحانه وتعالى داود الحكمة ، الّتى نستطيع أن نفهمها بأنّها التّقدير السّديد للأمور والتّصرّف الحكيم فى المواقف والقول الفصل والعمل الصّحيح ، وقمّة كلّ هذه النّعوت النّبوّة الّتى أكرم الله تعالى بها داود عليه السّلام ، ويصحّ أن يكون إيتاؤه النّبوّة بعد وفاة النّبىّ شمويل ، ويصحّ أن يكون داود عليه السّلام أوّل من جمع الله تعالى له الملك والنّبوّة معًا فى بنى إسرائيل ، ويصحّ أن يكون قد جمع قبل ذلك الملك والنّبوّة ليوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام ، فإذا كانت النّبوّة بل الرّسالة(١) ثابتةً ليوسف عليه السّلام فإنّا نتبيّن فى سورة يوسف أكثر من دليلٍ على أنّه جلّ وعلا منح يوسف عليه السّلام الملك ، وربّما كان ذلك بعد وفاة ملك مصر ، وذلك

(١) الآية ٣٤ من سورة غافر .

على غرار ما حصل لداود عليه السّلام من إيتائه الملك بعد وفاة طالوت . جاء فى سورة يوسف[١] قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنّا ليوسف فى الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ وجاءت الإشارة إلى عرش الملك أى سريره فى قوله تعالى[٢] : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجدًا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربّى حقّا ﴾ وجاءت الإشارة إلى الملك الّذى آتاه الله سبحانه وتعالى يوسف عليه السّلام فى القول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام فى سورة يوسف[٣] : ﴿ ربِّ قد آتيتنى من المُلْكِ وعلّمتنى من تأويلِ الأحاديث فاطِرَ السّماوات والأرضِ أنت وليىّ فى الدّنيا والآخرة توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصّالحين ﴾ .

وبشأن بنى إسرائيل كان الملك فى سبط والنّبوّة فى سبطٍ آخر .

وإضافةً إلى نعمتى الملك والنّبوّة ، وكانت نعمة الملك توطئةً لنعمة النّبوّة الكبرى ، علّم الله سبحانه وتعالى داود عليه السّلام ممّا يشاء جلّ وعلا كمنطق الطير وصنعة الدّروع والتّقدير فى السّرد ، إلى غير ذلك .

وإنّ فى النّصّ على نعمة العلم إلى جوار النّصّ على نعمتى الملك والنّبوّة إشادةً بالعلم والعلماء . وإنّ فى أثناء حديث الآيات الكريمات فى غير هذا الموضع عن داود وسليمان عليهما السّلام نصًّا على فضل الله تعالى عليهما بعامّة ، العلم بخاصّة . جاء عن داود وسليمان عليهما السّلام فى سورة الأنبياء[٤] قوله تعالى : ﴿ وكلاًّ آتينا حُكْمًا وعلمًا ﴾ وجاء فى سورة النّمل[٥] قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علمًا وقالا الحمد لله الّذى فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ .

وعطفًا على دفع الله سبحانه وتعالى الكافرين ، جالوت وجنوده ، بالمؤمنين ، طالوت وجنوده ، يجىء قوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين ﴾ والمعنى ولولا صرف الله سبحانه وتعالى أذى الكافرين

---

(١) الآية ٥٦

(٢) سورة يوسف ١٠٠ .

(٣) الآية ١٠١

(٤) الآية ٧٩ .

(٥) الآية ١٥ .

وإفساد المفسدين الرّاغبين فى منع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا ، الحريصين على إهلاك الحرث والنّسل وإيذاء العباد وإفساد البلاد ، ولولا تسليط الله تعالى على هذا البعض الكافر من النّاس البعض الآخر المؤمن من النّاس لهدّمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، ولعمّ الخراب البلاد ، ولشمل الهلاك الحرث والنّسل والعباد ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى ذو فضلٍ على المؤمنين ، بتسليطهم على الكافرين ، وإرشادهم إلى الصّراط المستقيم ، وحثّهم على الجهاد فى سبيله جلّ وعلا بالنّفس والنّفيس ووعدهم بالنّصر وبالظّفر على أعدائهم وإفراغ الصّبر عليهم حينما يلتقى الجمعان وتثبيت أقدامهم حينما تزلّ بالكافرين النّعل ويخرّون على مناخرهم فى الرّغام وبذلك يكون النّصر بإذن الله تعالى للمؤمنين والهزيمة والخسران للكافرين . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآية الكريمة الأربعين من سورة الحجّ . وهذه الآية الكريمة الأربعون تقتضينا ذكر المجموعة المترابطة من الآيات الكريمات فى المعنى ذاته . قال عزّ من قائل(١) : ﴿ إنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا . إنّ الله لا يحبّ كلّ خوّانٍ كفور . أُذِن للّذين يقاتَلون بأنّهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير . الّذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله . ولولا دفع الله النّاس بعضَهُمْ ببعضٍ لهُدِّمت صوامع وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجِد يُذْكر فيها اسم الله كثيرًا . ولَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره . إنّ الله لقويٌّ عزيز . الّذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاةَ وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور ﴾ .

وبهذا يتبيّن أنّ الحقّ ينبغى أن تكون معه القوّة الّتى تحميه وتذود عن حياضه بإذن الله تعالى . فعلى المسلمين أن يعوا هذه الحقيقة جيّدًا ، وعليهم أن يعدّوا لأعداء الله تعالى وأعدائهم ما استطاعوا من قوّة بكلّ معنًى للقوّة فى كلّ عصرٍ ومصر . والله الهادى إلى سواء السَّبيل .

---

(١) سورة الحجّ ٣٨ — ٤١ .

الآيــة رقــم (٢٥٢)

قال تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ وإنّك لمن المرسلين ﴾ .

هذه الآية الكريمة الّتى ينتهى بها الجزء الكريم الثّانى من المصحف الشّريف تقرّر أنّ تلك الآيات البيّنات من كتاب الله تعالى العزيز الّتى تحدّثت عن الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت وما جرى بإرادة الله تعالى لهم وعن الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى الّذين قالوا لنبىٍّ لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله تعالى وما ترتّب على ذلك من ملابسات وتقرّر من أحكام واستقرّ من نتائج ، إنّما هى آياتٌ بيّنات وحججٌ راسخات وعلاماتٌ واضحات يقصّها عليك ربّ العزّة بالصّدق ويتلوها عليك باليقين ، فليست هى بالحديث الّذى يفترى والقصص الّذى يخترع ، بل هى حقّ كلّ الحقّ صدقٌ كلّ الصّدق يستدلّ بها متأمّلها على صدقك وبأنّها وحىٌ من الله تعالى ، وينتهى الواقف عليها المتدبّر لها من علماء أهل الكتاب أنّها بوحيٍ من الله تعالى لصدقها من ناحية ولقلّة الّذين يعلمونها ويحيطون بدقائقها من علماء بنى إسرائيل من ناحيةٍ أخرى وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرًا ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ﴾ .

وإنّ ما ألمحت إليه الجزئيّة الكريمة : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ ﴾ من كون هذه الآيات البيّنات دليلاً على صدق المصطفى ﷺ وأنّه رسول ربّ العالمين قد أفصحت به الجزئيّة الكريمة الأخرى : ﴿ وإنّك لمن المرسلين ﴾ إنّ أداة التّوكيد « إنّ » تقوّى مضمونها اللّام المزحلقة الّتى تفيد التّوكيد ، فمحمّد بن عبد الله ﷺ واحدٌ من المرسلين بشهادة ربّ العزّة فى هذه الطّريقة المؤكّدة القويّة من التّعبير : ﴿ وإنّك لمن المرسلين ﴾ وإذا كانت نعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى إلى عبدٍ من عباده جلّ وعلا فإنّ محمّد بن عبد الله ﷺ أشرف المرسلين وخاتم النّبيّين وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النّبيّين وكان الله بكلّ شيءٍ عليمًا ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ١٥

(٢) سورة الأحزاب ٤٠ .

[١٦]

تفضيل الله تعالى بعض الرّسل

والدّعوة إلى التّوحيد والأدلّة على البعث

الآيات ٢٥٣ ـ ٢٦٠

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ
مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾
ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ
أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى

بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ
عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ
قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ
فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾
وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ
تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ
ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا
ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾

ختم الجزء الثّانى بالقول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ وإنّك لمن المرسلين ﴾ .
ويبدأ الحديث فى الجزء الثّالث بتبيين فضل الله تعالى على المرسلين وتفضيل الله تعالى بعضهم على بعض فموسى عليه السّلام كليم الله وعيسى عليه السّلام كلمة الله وآتاه الله تعالى البيّنات وأيّده بجبريل عليه السّلام ويتوسّط عقد هذين الرّسولين الكريم أشرفهم وأفضلهم محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى رفعه الله تعالى درجات . ويقرّر السّياق أنّ الاختلاف بين أتباع الرّسل بل الاقتتال بإرادة الله تعالى . ويؤمر المؤمنون بالإنفاق فى سبيل الله تعالى من قبل أن يأتى يوم القيامة الّذى لا فداء فيه ولا صداقة ولا شفاعة . وتأتى آية الكرسىّ سيّدة آى القرآن الّتى يأتى فيها اسم الله تعالى بين مضمرٍ وظاهرٍ ثمانى عشرة مرّة ، والّتى يتمثّل فيها كما يتمثّل فى سورة الإخلاص مثلاً توحيد الله تعالى وهو أكبر موضوعات القرآن الكريم الثّلاثة ، أمّا الموضوعان الآخران فهما القصص والأحكام ، وتشير آية الكرسىّ بجلاء إلى علم الله تعالى وقدرته المطلقتين جلّ وعلا . ويقرّر السّياق أنّه لا إكراه فى الدّين ويبيّن السّبب أو الحكمة وهو أنّه قد تبيّن الرّشد وهو دين الإسلام من الغىّ وهو الضّلال والكفر . إن من يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بعروة الإسلام الوثقى الّتى لا انفصام لها والله تعالى وليّه يخرجه من الظّلمات إلى النّور بينما الّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت وهم أصحاب النّار . وتأكيدًا لقضيّة التّوحيد الّتى اهتمّ لها القسم كثيرًا يسجّل السّياق الجدل الّذى تمّ بين علمٍ من أعلام التّوحيد ذاكم هو إبراهيم عليه السّلام وطاغيةٍ من طغاة الكفر وهو النّمروذ الّذى زعم أنّه يحيى ويميت فارًّا من حقيقة الحياة والموت إلى مجازهما فسأله إبراهيم عليه السّلام أن يأتى بالشّمس من المغرب فبهت الّذى كفر . وتأكيدًا لقضيّة البعث يتحدّث السّياق عن ذلك الّذى مرّ على قرية خاوية على عروشها فاستبعد عودة الحياة إلى أهلها فأماته الله مائة عامٍ ثمّ بعثه وكانت ثمّة أدلّة على موته مائة عام فالطّعام والشّراب لم يتسنّه والحمار تجتمع عظامه وتقف ويكسوها الله تعالى لحمًا وتعود الحياة إلى الحمار ويعلم المارّ على القرية أنّ الله على كلّ شىءٍ قدير . وتأكيدًا للقدرة -

وكى يرقى إبراهيم عليه السّلام من علم اليقين إلى عين اليقين يلبّى طلب إبراهيم عليه السّلام أن يريه الله تعالى كيف يحيى الموتى بأن يذبح عليه السّلام أربعةً من الطّير ويخلط لحمها وريشها ودماءها ويجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءًا ويبقى رءوسها فى يده ويدعوها عليه السّلام فتأتى مسرعةً مشيًا خلافًا للعادة وليس طيرانًا حتّى يلتحم كلّ رأس فى يد إبراهيم بكلّ جسدٍ يأتى سعيًا . إنّ كلّ ذلك يتمّ بإرادة العزيز الحكيم .

الآيــة رقــم (٢٥٣)

قال تعالى : ﴿ تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض . منهم من كلّم اللهُ ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس . ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّناتُ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما إقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد ﴾ .

تلك الرّسل : قال تلك ولم يقل ذلك مراعاةً لتأنيث لفظ الجماعة(١) لأنّه جمع تكسير . وجمع التّكسير حكمه حكم الواحدة المؤنّثة فى الوصف وفى عود الضّمير وفى غير ذلك . وكان جمع التّكسير هنا لاختصار اللّفظ ولإزالة قلق التّكرار لأنّه لو جاء : أولئك المرسلون فضّلنا ، كان اللّفظ فيه طول وكان فيه التّكرار(٢) وأشار بتلك الّتى للبعيد لبعد ما بينهم من الأزمان وبين النّبىّ ﷺ(٣) وتلك الرّسل إشارةٌ إلى جماعة الرّسل الّتى ذكرت قصصها فى السّورة أو الّتى ثبت علمها عند رسول الله ﷺ(٤) ويقول الطّبرىّ(٥) : « يعنى تعالى ذكره بقوله : تلك الرّسل ، الّذين قصّ الله قصصهم فى هذه السّورة كموسى بن عمران وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وشمويل وداود وسائر من ذكر نبأهم فى هذه السّورة » تلك مبتدأ . الرّسل صفة . والخبر فضلنا بعضهم على بعض(٦) وقيل : الرّسل عطف بيان وفضّلنا الخبر(٧) .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٩

(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢

(٤) الكشّاف ١ / ٢٩٠ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢

(٦) الجلالين .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٩ .

فضّلنا بعضهم على بعض : يقول القرطبىّ(١) : « هذه الآية مشكلة . والأحاديث ثابتة بأنّ النبىّ ﷺ : لا تخيّروا بين الأنبياء . ولا تفضّلوا بين أنبياء الله . رواه الأئمّة الثقات أى لا تقولوا فلانٌ خيرٌ من فلان ولا فلانٌ أفضل من فلان . يقال : خيّر فلانٌ بين فلانٍ وفلانٍ وفضّل ، مشدّدا ، إذا قال ذلك »(٢) وبعد أن ذكر القرطبى(٣) بعض الآراء فى معنى التّفضيل(٤) يقول : « قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إنّ المنع من التّفضيل إنّما هو من جهة النّبوّة الّتى هى خصلةٌ واحدةٌ لا تفاضل فيها ، وإنّما التّفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات . وأمّا النّبوّة فى نفسها فلا تتفاضل وإنّما تتفاضل بأمورٍ أخر زائدةٍ عليها ، ولذلك منهم رسلٌ وأولو عزمٍ ومنهم من اتّخذ خليلاً ومنهم من كلم الله » ويقول أبو حيّان(٥) : « والتّفضيل بالفضائل بعد الفرائض . أو الشّرائع على غير ذى الشّرائع . أو بالخصائص كالكلام » وهكذا جاء فى الحديث : أنا سيّد ولد آدم . وقال : لا تفضّلونى على موسى . وقال : لا ينبغى لأحدٍ أن يقول : أنا خيرٌ من يونس بن متّى(٦) وإنّ الله تعالى لمّا أخبر أنّه فضّل بعضهم على بعض جعل يبيّن بعض المتفاضلين ويذكر الأحوال الّتى فضّلوا بها فقال : منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات . وقال : وآتينا داود زبورا. وقال تعالى : وآتيناه الإنجيل ، ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتّقين . وقال تعالى : ولقد آتينا داود وسليمان علمًا . وقال : وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح . فعمّ وخصّ وبدأ بمحمّدٍ ﷺ . وهذا ظاهر(٧) ويضيف القرطبىّ(٨) : « قلت : وهكذا القول فى الصّحابة إن شاء الله تعالى ، اشتركوا فى الصّحبة ثمّ تباينوا فى الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل ، فهم متفاضلون بتلك مع أنّ الكلّ شملتهم الصّحبة والعدالة والثّناء عليهم . وحسبك بقول الحقّ : محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار إلى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٦٩ .

(٢) وانظر هنا تفسير ابن كثير للآية الكريمة والحديث الّذى جاء فى الصّحيحين عن أبى هريرة وفيه : « فلا تفضّلونى على الأنبياء » .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٠

(٤) انظر هنا تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ .

(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢

(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٧٣ .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٢

(٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٢ .

آخر السّورة . وقال : وألزمهم كلمة التّقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها . ثمّ قال : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . وقال : لقد رضى الله عن المؤمنين إذيبا بعونك تحت الشّجرة فعمّ وخصّ ، ونفى عنهم الشّين والنّقص ، رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبّهم آمين » .

منهم من كلّم الله : المكلّم موسى عليه السّلام وحذفت الهاء لطول الاسم . والمعنى : من كلّمه الله[١] من غير سفير[٢] قرأ الجمهور بالتّشديد ورفع الجلالة[٣] وقد صحّ فى حديث الإسراء حيث ارتقى رسول الله ﷺ إلى مقام تأخّر عنه فيه جبريل أنّه جرت بينه ﷺ وبين ربّه تعالى مخاطبات ومحاورات فلا يبعد أن يدخل تحت قوله منهم من كلّم الله موسى وآدم ومحمّد ﷺ لأنّه قد ثبت تكليم الله لهم[٤] كما ورد به الحديث المروىّ فى صحيح ابن حبّان عن أبى ذرّ رضى الله عنه[٥] وبدىء بموسى عليه السّلام لتقدّمه فى الزّمان[٦] .

ورفع بعضهم درجات : قال النّحاس : بعضهم هنا على قول ابن عبّاس والشّعبىّ ومجاهد محمّد ﷺ . قال ﷺ : بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ونصرت بالرّعب مسيرة شهرٍ وأحلّت لى الغنائم وأعطيت الشّفاعة . ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشّجر وإطعامه الطّعام خلقًا عظيمًا من تُمَيْرات . ودُرور شاة أمّ معبدٍ بعد جفاف . وقال ابن عطيّة معناه وزاد : وهو أعظم النّاس أمّةً وخُتِم به النّبيّون إلى غير ذلك من الخلق العظيم الّذى أعطاه الله[٧] ويحتمل اللّفظ أن يراد به محمّد ﷺ وغيره ممّن عظمت آياته ويكون الكلام تأكيدًا[٨] وفى هذا الإبهام من تفخيم فضل المصطفى ﷺ وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشّهادة على أنّه العَلَم

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢ .
(٢) الكشّاف ١ / ٢٩٠ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٣ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٣ (٤) البحر المحيط ٢ / ٢٧٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ (٦) البحر المحيط ٢ / ٢٨٤ .
(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٢ وانظر الجلالين والكشّاف ١ / ٢٩٠ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٣ وتفسير الطبرىّ ٣ / ٢ .
(٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٣ .

الّذى لا يشتبه والمتميّز الّذى لا يلتبس[١] ويقول أبو حيّان[٢] : « ولمّا كان نبيّنا محمّد ﷺ هو الّذى أوتى ما لم يؤته أحدٌ من كثرة المعجزات وعظمها وكان المشهود له بإحراز قصبات السّبق حقّ ذكره بذكر هذين الرّسولين العظيمين ليحصل لكلٍّ منهما بمجاورة ذكره الشّرف إذ هو بينهما واسطة عقد النّبوّة فينزل منهما منزلة واسطة العقد الّذى يزدان بها ما جاورها من اللآلىء » وانتصاب درجات قيل على المصدر لأنّ الدّرجة بمعنى الرّفعة أو على المصدر الّذى فى موضع الحال أو على الحال على حذف مضاف أى ذوى درجات أو على المفعول الثّانى لرفع على طريق التّضمين لمعنى بلغ[٣] .

وآتينا عيسي ابن مريم البيّنات : أى الحجج والدّلائل القاطعات على صحّة ما جاء بنى إسرائيل به من أنّه عبد الله ورسوله إليهم[٤] من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما أشبه ذلك مع الإنجيل الّذى أنزلته إليه فبيّنت فيه ما فرضت عليه[٥] .

وأيّدناه : وقوّيناه وأعنّاه[٦] .

بروح القدس : بروح الله وهو جبريل[٧] عليه السّلام يسير معه حيث سار[٨] .

ولو شاء الله : قيل فى الكلام حذف التّقدير فاختلف أممهم واقتتلوا[٩] .

ومفعول شاء محذوف تقديره ألاّ يقتتلوا وقيل ألاّ يأمر بالقتال ، قاله الزّجّاج . وقال مجاهد : ألا يختلفوا الاختلاف الّذى هو سبب القتال[١٠] .

ما اقتتل الّذين من بعدهم : أى من بعد الرّسل[١١] .

فمنهم من آمن ومنهم من كفر : بغيًا وحسدًا وعلى حطام الدنيا . وذلك كلّه بقضاءٍ

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٩٠
(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٧٤ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٣
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢ وتفسير القرطبىّ ص ١٠٧٣ والجلالين .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢ وتفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ .
(٨) الجلالين
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٧٤ .
(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٧٤ .
(١١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٣ والكشّاف ١ / ٢٩٠ .

وقدرٍ وإرادةٍ من الله تعالى(١) .

ولو شاء الله : خلاف ذلك لكان(٢) .

ولكنّ الله يفعل ما يريد : بأن يوفّق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه(٣) .

تبدأ الآية الكريمة باسم الإشارة الدّالّ على البعد « تلك » وذلك على غرار ابتداء الآية الكريمة السّابقة بهذا الاسم . وفى كلّ من الموضعين يدلّ اسم الإشارة على الرّفعة والبعد. ففى القول : ﴿ تلك آيات الله ﴾ تنبيهٌ على رفيع منزلة آيات الله تعالى . وفى القول : ﴿ تلك الرّسل ﴾ تنبيهٌ على رفيع منزلة أولئك الرّسل . وإنّ اسم الإشارة هذا الدّالّ على البعد ورفيع المنزلة خير مهيّئ لجوّ الرّفعة والتّفاضل المهيمن على نصف الآية الكريمة الأوّل ، والّذى نتمثّله بعد اسم الإشارة فى لفظ الرّسل ، إذ المعروف أنّ أكبر نعمةٍ يمتنّ الله تعالى بها على عبدٍ من عباده هى نعمة الرّسالة . وتعتبر نعمة النّبوّة الأقلّ منها درجةً الطّريق الوحيد المؤدّى إلى نعمة الرّسالة . ونستطيع أن نفهم المنزلة العليا للرّسول بتأمّل هذه الآية الكريمة من سورة النّساء الّتى تجمع فى نسقٍ بين فئات المنعم عليهم ابتداءً بالنّبيّين ، بينما يقرن صدر الآية الكريمة بين طاعة الله تعالى وطاعة الرّسول الكريم تنبيهًا إلى منزلة الرّسالة الأعلى والرّسول . قال تعالى(٤) : ﴿ ومن يُطِعِ اللهَ والرّسولَ فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا . ذلك الفضلُ من الله وكفى بالله عليما ﴾ كما أنّنا نستطيع أن ندرك فحوى جمع هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب للمصطفى ﷺ بين نعمتى الرّسالة وختم النّبوّة تنبيهًا فى إغلاق باب النّبوّة إلى إغلاق الطّريق الوحيد المؤدّى إلى نعمة الرّسالة . قال تعالى(٥) : ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النّبيّين . وكان الله بكلّ شىءٍ عليمًا ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٣ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٤ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٣

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣ .

(٤) سورة النّساء ٦٩

(٥) سورة الأحزاب ٤٠ .

وبعد الإشارة إلى رفيع منزلة الرّسل ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، وقد عرفنا أنّ نعمة الرّسالة أكبر نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده جلّ وعلا ، تنصّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ فضّلنا بعضهم على بعض ﴾ على تفضيل الله تعالى بعض أولئك المرسلين على بعض . وينبغى أن يكون لاختيار لفظ المرسلين وليس النّبيّين مغزىً عميقٌ ومرمىً بعيدٌ لأنّ التّفاضل هنا بين السَّويّة فى أعلى الدّرجات ألا وهى درجة الرّسالة ويصحّ أن يفهم من هذا النّوع من التّفاضل ، ما دامت نعمة الرّسالة فى حقّ الجميع واحدة ، يعود إلى ما خصّ الله سبحانه وتعالى بعضهم من الخصائص والكرامات والألطاف والمعجزات .

ونستطيع أن نفهم من الجمع فى نسق بين اسم الإشارة الدّالّ على البعد وعلى معنى العلوّ وبين ذكر لفظ الرّسل الّذين فهمنا منزلتهم العالية عند بارئهم ، نستطيع أن نفهم اتّجاه مؤشّر الحديث نحو العلوّ والارتفاع خاصّةً وقد تمّت الإشارة إلى التّفاضل بين تلك الرّسل . وحينما ينّص بعد ذلك على بعض المصطفين الأخيار من أولئك المرسلين ، نستطيع أن نفهم أنّ الحديث هنا عن خيار الخيار وعن أهمّ ملابسات التّفاضل وحيثيّاته الّتى تمّت بفضل الله تعالى ومنّه والّتى كانت بشأن كلّ رسول بمثابة العِلاوة على نعمة الرّسالة الّتى يستوى فيها المرسلون .

ويبدأ الحديث بالنّصّ على موسى عليه السّلام من بين ثلاثةٍ من المرسلين نصّت على نعوتهم الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ منهم من كلّم الله ﴾ والمعنى منهم من كلّمه الله تعالى من غير سفير ، وهذا النّوع من الكلام من وراء حجاب أرفع أنواع الكلام الّتى أشارت إليها سورة الشّورى[1] : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحيًا أو من وراء حجابٍ أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنّه علىّ حكيم ﴾ ومع أنّ صفة الكلام هذه يشترك فيها كلٌّ من موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام ، فقد جاء عن موسى عليه السّلام قوله تعالى[2] : ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا

---

(١) الآية ٥١ (٢) سورة النّساء ١٦٤ .

(٣) سورة الأعراف ١٤٣ .

وكلّمه ربّه قال ربّ أرنى أنظُرْ إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ﴾ وصحّ فى حديث الإسراء حيث ارتقى رسول الله ﷺ إلى مقامٍ تأخّر عنه فيه جبريل أنّه جرت بينه ﷺ وبين ربّه تعالى مخاطباتٌ ومحاورات(١) مع أنّ صفة الكلام هذه يشترك فيها كلٌّ من الرّسولين الكريمين فإنّها ألصق بموسى عليه السّلام باعتبارها من أهمّ صفاته ﷺ ، وبذلك يكون الحديث عمّن كلّمه الله تعالى قد راعى التّقدّم الزّمنىّ للرّسل الكرام الثّلاثة الّذين نصّ عليهم السّياق . وما دمنا عرفنا أوّل الرّسل الثّلاثة زمنًا وهو موسى عليه السّلام فمن هما الرّسولان الكريمان بعده . لننظر إلى ما يخصّ هؤلاء الرّسل الثّلاثة معًا ولنعيّن اسم الرّسول الّذى لم يذكر صراحةً من بين الاسمين الأخيرين . قال تعالى : ﴿ منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس ﴾ .

ومن البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة تنصّ على عيسى ابن مريم عليه السّلام ، والمعروف أنّه لا يوجد نبىٌّ بين محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وبين عيسى عليه السّلام . فمن هو هذا الرّسول الكريم الثّالث الّذى تشير الجزئيّة الكريمة إليه فى القول : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ وإلى فضل الله تعالى العظيم عليه ؟ ومن هو هذا النّبىّ العظيم الّذى يذكر نعته فى هذه الطّريقة الفريدة الفذّة بين هذين الرّسولين الكريم موسى كليم الله تعالى وعيسى كلمة الله تعالى ؟ من هو هذا الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم الّذى يحفّ به من جانبيه وعن يمينه وشماله هذان الرّسولان العظيمان فيكون منهما بمثابة الدّرّة اليتيمة وواسطة العقد ؟ إنّ هذا الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم هو محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين . « ورفع بعضهم درجات » فمع هذه الجزئيّة الكريمة المتعلّقة بخاتم النبيّين وأشرف المرسلين .

وأوّل ما نودّ الوقوف عنده هو اتّجاه السّياق حتّى هذا القول : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ إلى أعلى . وها نحن أولاء أمام القمّة فى هذا القول الّذى يشدّنا فيه شدًّا جملة رفع . ومن الّذى رفع ؟ إنّه الله سبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام الّذى كلّم موسى عليه

---

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٧٣ .

السّلام . وينبغى أن تكون جملة رفع قادرةً على أن تقذف إلى أذهاننا بمثل قوله تعالى فى سورة الشّرح(١) : ﴿ أَلَمْ نَشْرَح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الّذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذِكْرَك ﴾ وقوله تعالى(٢) : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ .

ويلاحظ أنّ لفظة درجات تجىء فى صيغة الجمع وليس فى صيغة المفرد درجة . إنّ السّياق كما تبيّن يقرّر التّفاضل . ولو أنّ لفظة درجات جاءت فى صيغة المفرد لكانت دالّةً على فضل هذا الرّسول الكريم ورفيع درجته خاصّةً وأنّنا بصدد جملة رفع ، فكيف إذا كنّا بصدد صيغة الجمع درجات والله سبحانه وتعالى وحده أعلم بمعنى الدّرجة الواحدة فى التّفاضل بين الرّسل فكيف بالتفضيل درجات . لا شكّ أنّ هذا التّفاضل أبعد من قدرة البشر على الإلمام به أو تخيّله .

وهذا الموضع الّذى يشاد فيه بالمصطفى ﷺ واحدٌ من المواضع العديدة فى القرآن الكريم الّتى يُرفع فيها من ذكره ﷺ ويبين فيها شىءٌ من فضل الله تعالى عليه ﷺ . ومن السّور الكريمة الّتى تعدّدت فيها مواضع رفع الذّكر سورة الأحزاب ، فعلى سبيل المثال بعد أن يشار إلى أخذ الميثاق من النّبيّين وفيهم المصطفى ﷺ ينصّ على أولى العزم من الرّسل الخمسة ابتداءً بالمصطفى ﷺ خاتم النّبيين . قال تعالى(٣) : ﴿ وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا ﴾ والمصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة . قال تعالى(٤) : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ والمصطفى ﷺ رسول الله وخاتم النّبيّين . قال تعالى(٥) : ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النّبيّين . وكان الله بكلّ شىءٍ عليما ﴾ والله جلّ جلاله والملائكة الأطهار يصلّون على النّبىّ . قال تعالى(٦) : ﴿ إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبىّ . يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا

---

(١) الآيات ١ — ٤

(٢) سورة النّساء ١١٣ .

(٣) سورة الأحزاب ٧

(٤) سورة الأحزاب ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب ٤٠

(٦) سورة الأحزاب ٥٦ .

عليه وسلّموا تسليما ﴾ وفى دراستنا المتأمّلة لسورة الأحزاب(١) وقفنا مليًّا عند هذه الآيات الكريمات .

أما وقد حُفّ المصطفى ﷺ من أحد جانبيه بكليم الله تعالى موسى عليه السّلام ، فقد حفّ من جانبه الآخر بكلمة الله تعالى عيسى عليه السّلام قال تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس ﴾ . والمعنى : وآتى الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام الآيات البيّنات والحجج الواضحات على أنّه عبد الله تعالى ورسوله إلى بنى إسرائيل وأنّه ابن مريم البتول . وقد أيّد الله سبحانه وتعالى عيسى ابن مريم وقوّاه بروح القدس جبريل عليه السّلام الّذى كان يسير معه حيث سار . ويلاحظ أنّ السّياق لا يكتفى بذكر عيسى عليه السّلام مجرّدًا بل ينصّ على أنه ابن مريم . وهذا واحدٌ من المواضع الّتى ذكر فيها أنّ عيسى عليه السّلام هو ابن مريم ، وهى مواضع تزيد فى العدد على المواضع فى القرآن الكريم الّتى ذكر فيها اسم عيسى مجرّدا . والحكمة من ذلك تعميق العلم والإيمان بكون عيسى عليه السّلام ابن مريم وليس أىّ شيءٍ آخر كما يذهب إلى ذلك الغالون فيه عليه الصّلاة والسّلام .

وحينما نتبيّن أنّ السّياق قد جمع بين موسى وعيسى عليهما السّلام ، والمعروف أنّ شريعة عيسى عليه السّلام متمّمة لشريعة موسى عليه السّلام ، فهذا عيسى عليه السّلام يجىء على لسانه القول(٢) : ﴿ ومصدّقًا لما بين يدىّ من التّوراة ولأحلّ لكم بعض الّذى حُرّم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون ﴾ وهؤلاء الجنّ الّذى صرفهم الله تعالى إلى المصطفى ﷺ كى يستمعوا القرآن الكريم الّذى يرتّله ﷺ وهو يصلّى ببطن نخلة الفجر بأصحابه كما روى الشّيخان(٣) يشيرون إلى القرآن الكريم باعتباره الكتاب السّماوىّ الّذى أنزل بعد موسى عليه السّلام متجاوزين الإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى باعتبار الإنجيل متمّمًا للتوراة فهما فى حكم الكتاب السّماوىّ الواحد .

(١) بعنوان تأمّلات فى سورة الأحزاب من مطبوعات نادى مكّة المكرّمة الثقافىّ عام ١٤٠٣ هـ .
(٢) سورة آل عمران ٥٠ .
(٣) انظر مثلاً الجلالين فى تفسير الآية ٢٩ من سورة الأحقاف .

جاء فى سورة الأحقاف قوله تعالى(١) : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قُضِى ولّوْا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدّقًا لما بين يديه يهدى إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم ﴾ حينما نتبيّن هذه الملابسات مجتمعة ونتمثّل هؤلاء الرّسل الثّلاثة موسى ومحمّد وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام ، وهم من أولى العزم من الرّسل ، لا نملك ونحن بصدد الآيات البيّنات الّتى آتاهم الله تعالى إيّاها وفضله العظيم عليهم إلاّ أن نستذكر جيّدًا معجزة المصطفى ﷺ البيانيّة الكبرى الخالدة ، القرآن الكريم ، الّتى تتقدّم كلّ معجزاته الأخرى ﷺ وما أكثرها ، ونستذكر جيّدًا أنّ القرآن الكريم هو الكتاب السّماوىّ الوحيد الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها . وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ إناّ نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ بل هو آياتٍ بيّناتٌ فى صدور الّذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون ﴾ وإنّما تكفّل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز لأنّه المعجزة والمنهج معًا ، أمّا الكتب السّماويّة الأخرى فهى المنهج وحده ، أمّا المعجزة فهى شىءٌ آخر غير الكتاب السّماوىّ ، وهى فى حقّ موسى عليه السّلام آياته التّسع وفى مقدّمتها العصا واليد . لتفوّق قومه فى السّحر . وهى فى حقّ عيسى عليه السّلام آياته البيّنات الّتى نصّت عليها مثلاً هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران(٤) : ﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم إنّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

وقد كان الكتاب العزيز السّماوىّ الأخير معجزًا لأنّ خاتم الأنبياء والمرسلين بعث فى أمّة ، البيانُ بضاعتها والفصاحة ميدانها والبلاغة حلبتها . وقد شاءت العناية الإلٰهيّة لهذه الرّسالة الخاتمة إلى يوم الدّين أن تكون واحدة الرّسول ، واحدة الكتاب ، واحدة السّنّة .

(١) الآية ٢٩ ، ٣٠ (٢) سورة الحجر ٩ .
(٣) سورة العنكبوت ٤٩ (٤) الآية ٤٩ .

وكلّ ذلك من مظاهر فضل الله تعالى على هذا الرّسول الخاتم ، ومن علامات الدّرجات العالية الّتى رفع ربّ العزّة المصطفى ﷺ إليها : ﴿ منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى القسم الثّانى من الآية الكريمة استطعنا أن نتبيّن أنّه يتحدّث عن أتباع أولئك المرسلين ، ومنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان بين الأتباع اختلاف ، ثمّ كان قتالٌ وقتل ، وقد تمّ كلّ ذلك بعلم الله تعالى ومشيئته . قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد ﴾ ونستطيع أن نفهم هذا القسم الثّانى على هذا النّحو : ولو شاء الله تعالى ألاّ يقتتل أتباع أولئك المرسلين من بعد موت أولئك المرسلين ما اقتتلوا . وكان اقتتالهم من بعد ما جاءتهم الآيات البيّنات وانتهت إليهم فعلاً ووقفوا عليها تلاوةً وفهمًا وتدبّرا . وكان السّبب الّذى أدّى إلى الاقتتال الاختلاف فيما بينهم ، وانقسامهم فريقين مؤمنين متّقين ورعين ، وكافرين حاسدين باغين وفى حطام الدّنيا طامعين . لقد كان كلٌّ من الاختلاف والاقتتال بمشيئة الله تعالى وإرادته . ولو شاء الله تعالى لهم ألاّ يقتتلوا ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد ، لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ، ولا يخرج شىءٌ يريده جلّ وعلا من الحكمة الّتى قد تخفى على عباد الله تعالى الأذكياء الألمعيّين فكيف بسواهم .

والحقيقة أنّا نودّ أن ننظر إلى هذا القسم الثّانى من الآية الكريمة من زوايا أخر وأن نتحدّث عنه فى هيئة نقاط ، هى على النّحو التّالى .

١ — نستطيع أن ننظر إلى هذا القسم من الآية الكريمة فى ضوء الآية الكريمة الثّالثة عشرة بعد المائتين من هذه السّورة . قال تعالى : ﴿ كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيًا بينهم . فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ كان النّاس بعد آدم عليه السّلام أمّةً واحدةً على دين الإسلام فاختلفوا بمرور السّنين وتطاول الأزمان

فبعث الله النّبيّين . وكان بعث الله تعالى النّبيّين للتّبشير والإنذار ، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه وليزول الاختلاف فيما بينهم . والعجيب أنّ الّذين اختلفوا فى الكتاب هم الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب كى يزول الاختلاف فيما بينهم . أمّا باعث الاختلاف فهو البغى والطّغيان وقد أدّى ذلك إلى القتال . وقد هدى الله تعالى الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه .

فى ضوء هذه الآية الكريمة من سورة البقرة نستطيع أن نفهم القسم الثّانى من الآية الكريمة على هذا النّحو : ولو شاء الله سبحانه وتعالى ألاّ يقتتل أتباع الرّسل ما اقتتلوا ولكن شاءت إرادته جلّ وعلا ذلك لحكمةٍ اقتضتها مشيئته تعالى لأنّهم من بعد ما جاءتهم آيات الكتاب السّماوىّ البيّنات والحجج الواضحات اختلفوا فى ذلك الكتاب السّماوى الّذى آتاهم الله تعالى إيّاه كى يزول الاختلاف السّابق بينهم . وقد هدى الله سبحانه وتعالى الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ، وهؤلاء هم الّذين يشملهم القول : ﴿ فمنهم من آمن ﴾ أمّا الطّغاة البغاة الّذين كفروا فقد وكلهم الله تعالى إلى أهوائهم وإلى أوليائهم من شياطين الإنس والجنّ فازدادوا إلى الاختلاف السّابق لنزول الكتاب اختلافًا فى الكتاب ذاته بغيًا بينهم ، وتحوّلوا من الاختلاف إلى الاقتتال وقتل بعضهم بعضًا وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يولّى بعض الظّالمين بعضًا ويسلّط بعض الظّالمين على بعض فيأكل الظّالم القوىّ الظّالم الأقلّ قوّة . وهكذا .

٢ ــ يلفت نظرنا فى القسم الثّانى من الآية اقتران مشيئة الله تعالى مرّتين اثنتين باقتتال الكافرين الظّالمين البغاة . قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد ﴾ وقد عرفنا من آية البقرة الأخرى أنّ العناية الإلٰهيّة أرادت أن يزول الخلاف بين النّاس الّذين كانوا أمّةً واحدة مؤتلفين وذلك بإرسال الرّسل وإنزال الكتب . ومع أنّ الخلاف قد استمرّ إلاّ أنّ المؤمنين الّذين هداهم الله تعالى إلى الصّراط المستقيم ما لبثوا أن هجروا

(١) سورة الأنعام ١٢٩ .

الاختلاف إلى الائتلاف ، لأنّ نيّاتهم كانت صادقةً فى البحث عن الحقّ والحقيقة . أمّا الكافرون الّذين اتّخذوا آيات الله تعالى وراءهم ظهريًّا وأصرّوا على الاختلاف فقد زادهم الله تعالى عمًى إلى عماهم وتحوّل الكافرون الظّالمون فيما بينهم من الاختلاف إلى الاقتتال . لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يزول الاختلاف فتمّ إرسال الرّسل وإنزال الكتب الّتى اهتدى بها الّذين وفّقهم الله تعالى للاهتداء بها ولزيادة الاهتداء بها . كما شاءت إرادة الله تعالى للمصرّين على الاختلاف لأجل الاختلاف وبدافع البغى والعدوان أن يتحوّل الاختلاف إلى اقتتال تمشّيًا مع آية سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ وكان الاقتتال بين الكافرين تمشّيًا مع قوله تعالى فى سورة النّساء[١] : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ .

٣ — إنّ الآية الكريمة إذا كانت تتحدّث عن الرّسل السّابقين وأممهم ، فإنّ سنّة الله تعالى واحدة لا تتغيّر ولا تتبدّل فعلى المؤمنين من أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ أن يعوا هذه الحقيقة جيّدًا وأن يتّعظوا بما فعل الله سبحانه وتعالى بالكافرين السّابقين وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

إنّه لا مكان للتّنازع بين المسلمين وقد قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا ﴾ .

وحينما لا يكون ثمّة مكانٌ للتّنازع بين المسلمين فلا مكان من باب الأولى والأحرى للتّقاتل وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ وما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمنًا إلاّ خطأً ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ ومن يَقْتُلْ مؤمنًا متعمّدًا فجزاؤه جهنّم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابًا عظيما ﴾ .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين رشدهم وأن يهديهم إلى الصّراط المستقيم وأن يوفّقهم للتّحاكم فيما شجر بينهم إلى كتاب الله تعالى وسنّة حبيبه المصطفى الأمين ﷺ . آمين .

---

(١) الآية ١٤١ (٢) سورة الحشر ٢ .

(٣) سورة النّساء ٥٩ (٤) سورة النّساء ٩٢ . (٥) سورة النّساء ٩٣ .

الآيــة رقــم (٢٥٤)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعة . والكافرون هم الظّالمون ﴾ .

يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم : قال الحسن : هى الزّكاة المفروضة . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير : هذه الآية تجمع الزّكاة المفروضة والتّطوّع . قال ابن عطيّة : وهذا صحيح . ولكن ما تقدّم من الآيات فى ذكر القتال وأنّ الله يدفع بالمؤمنين فى صدور الكافرين يترجّح منه أنّ هذا النّدب إنّما هو فى سبيل الله . ويقوّى ذلك فى آخر الآية قوله : والكافرون هم الظّالمون . أى فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال[1]

ويقول الطّبرىّ[2] : « يعنى تعالى ذكره بذلك : يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا فى سبيل الله ممّا رزقناكم من أموالكم وتصدّقوا منها وآتوا منها الحقوق الّتى فرضناها عليكم » وما موصولة بمعنى الّذى والعائد محذوق أى رزقناكموه[3] .

من قبل أن يأتى يوم : يعنى يوم القيامة[4] .

لا بيعٌ فيه : قال مكّىّ : والاختيار الرّفع ، لأنّ أكثر القرّاء عليه[5] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : لا بَيْعَ فيه ولا خُلَّةَ ولا شفاعةَ ، بالنّصب من غير تنوين . فالفتح على النّفى العامّ المستغرق لجميع الوجوه من ذلك الصّنف[6] لا بيع فيه أى لا فدية فيه لأنفسكم من عذاب الله . وذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة وأخذ البدل[7] . ويقول الطّبرىّ[8] : « يعنى من قبل مجىء يومٍ لا بيع فيه يقول : لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه بالنّفقة من أموالكم الّذى أمرتكم به أو ندبتكم إليه فى الدّنيا قادرين لأنّه يوم جزاءٍ وثوابٍ وعقاب لا يوم عملٍ واكتساب وطاعة ومعصية » .

ولا خلّة : الخُلّة خالص المودّة مأخوذة من تخلّل الأسرار بين الصّديقين[9] والصّداقة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٤

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٥

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٤ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٥

(٦) انظر تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٤ .

(٧) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٧٦

(٨) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣ .

(٩) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٤ .